الدكتور نبيل راغب

الوصمة

مكتبة غريب

الوصمة

— ١ —

فتح السجن الكبير بابه وخرج منه عبده بعد أن قضى فى بطنه تسعة أشهر فهل هذا ميلاد جديد ؟! تراقص السؤال وشمس الشارع العريض تسطع فى عينيه . لم يستقبله أحد عند خروجه كما لم يزره أحد فى أثناء سجنه . لم يتذوق طعم الأسرة فى حياته التى لاتزيد على ربع قرن . تعود أبوه أن يتزوج وينجب ويطلق كى يعمل أبناؤه فى حرف تعود عليه هو بالمال ، ولايهم ماذا يحدث للأبناء الذين لايعرف أسماءهم لوفرة عددهم .

وعندما بلغ عبده سن الحلم أصبح تلميذاً نجيبا لأبيه . أدرك أن الحياة غابة ولايستحق أن يعيش من لم يعش لنفسه. وانفصل عن العمل لحساب أبيه صبيا فى ورش السباكة واللحام ، بل وانقطعت أخباره عنه . ولم يكلف الأب نفسه عناء البحث عن ابنه فلديه من الاحتياطى الكثير .

تعلم عبده الكثير فى حرف السباكة واللحام وأقفال الأبواب والخزائن، لكن المعاناة كانت تزيد على العائد . ولم تفارق مخيلته صور الثراء والوفرة

والرفاهية التى كان يحلم بها منذ أن كان طالبا بالمدرسة الاعدادية التى كانت آخر ما وصل إليه تعليمه . كان هانى زميله على نفس الدرج من أسرة متيسرة الحال ، وكان يحكى له عن الحفلات التى تقام بالمنزل والرحلات التى تقوم بها الأسرة . كان وحيد أسرته ولم تبخل عليه بأى شئ يطلبه . لكنه مل الحياة عندما وجد كل رغباته مجابة وبدأ فى البحث عن الغامض والانحراف وكل ما هو شاذ . وانتهى إلى نفس الخاتمة التى بلغها عبده . فقد ترك الاثنان الدراسة : عبده بحثا عن طريق يعود عليه بالثراء السريع ، وهانى اعتمادا على أسرته التى تمده بكل ما يطلبه ولا تسأل عما يفعله .

تتابعت هذه الخواطر مع خطوات عبده وهو يسير فى الشارع المشمس العريض . لا يوجد مكان يذهب إليه . وكل ما معه من نقود لا يكفيه أكثر من شهر . هل يعود إلى الحارة القديمة حيث الحجرة التى كان يستأجرها فوق السطح ؟ !. كيف سيستقبله سكان الحارة بعد أن قبض عليه فى حادث السطو الأخير على خزانة شركة أبو الفوارس للاستيراد والاستثمار ؟ هل يقبلون أن يعيش وسطهم صاحب سوابق ؟ ! هذا إذا كانت الغرفة لا تزال خالية ؟ !

بلغ عبده الميدان حيث موقف الأتوبيسات . بدأ فى الاحساس بالضجيج وهو يصم أذنيه . هدير محركات الأتوبيسات . ملاحقة الناس للأتوبيسات التى غادرت الموقف : صيحات باعة الصحف والمأكولات . دائرة من البشر إلتفت حول أحد الحواة فى ركن من أركان الميدان الكبير وهو ينفخ فى النار فترتفع ليراها كل من فى الميدان . صراخ أحد الفلاحين الذى سرقت محفظته :

وقف عبده على الرصيف ووضع الكيس الخيش الذى كان يحمله على كتفه بجوار قدميه . إن الحرية شئ رائع . ولكن هل يمكن أن تتحول الحياة

إلى سجن كبير من نوع آخر ؟ ! في السجن كان يعرف تماما ما سوف يفعله يوميا على وجه التحديد . لكنه لايعرف ماذا يمكن فعله الآن ؟ ! تشتهى الناس الحرية وتموت من أجلها ، ولكنهم عندما يحصلون عليها لايعرفون ماذا يفعلون بها ؟ ! غريب أمر هذه الحرية ! !

تصفح عبده أرقام الأتوبيسات القادمة إلى الموقف والمغادرة له . لكنه لم يعرف أى أتوبيس يركب ؟! فجأة وصل أتوبيس والناس يجرون حوله محاولين الركوب قبل أن يقف . مثل النمل يسرع حاملا أحد الصراصير الميتة ! وقعت عينا عبده على رقمه فتذكر على الفور أنه الأتوبيس الذى يمر بالقرب من حارته القديمة . لقد قرر الأتوبيس إلى أين يذهب عبده ؟ !

تحفز عبده بكل طاقته حاملا كيسه الخيش وهاجما مزيحا الناس فى طريقه إلى باب الأتوبيس . انهالت عليه اللعنات والسباب لكنه لم يعبأ واقتحم الجميع بالكيس الخيش واستطاع أن يستوى على أحد المقاعد الأمامية . وتحرك الأتوبيس وسط موجات البشر ، وسط الميدان الصاخب كالبحر .

— ٢ —

أهلا بك ياحارتى العزيزة العتيدة العريقة . الكون كله يتغير لكنك لاتتغيرين . نفس رائحة العفن القديم ونفس الرطوبة التى تمسك بخناقك . لم يتغير سوى كوم الفضلات الذى ازداد ارتفاعه بجوار محل الحاج حسنين صاحب محل الفول والطعمية . تتظاهر ياعم حسنين أنك لاترانى . لكننى أراك وأفهمك جيدا .

تقدم عبده فى اتجاه محل الحاج حسنين الذى ازداد انشغاله بعملية قلى الطعمية عندما لمح عبده بطرف عينه اليسرى . وقف عبده عند المدخل :

— السلام عليكم ..

تظاهر الحاج حسنين بأنه يرى عبده لأول مرة . أقبل على عبده بيديه الملوثتين بالطعمية النيئة يكاد يحتضنه لكن عبده تفاداه بأن قبض على ذراعه مسلما عليه فى حماس .

– أهلا ياعبده .. حمدا لله على سلامتك .. والله زمان .. تفضل تفضل .. كانت الحارة ظلاما بدونك ..

جلس عبده على أحد المقاعد المواجهة لطاسة الزيت فى حين هرع حسنين مستخرجا الطعمية من الزيت قبل أن تحترق .

– خطوة عزيزة ياعبده ..

– أعز الله قدرك ياعم حسنين .. لقد أخذت درس العمر وقررت أن أكسب قوتى من عرق جبينى ..

– ونعم العقل يابنى .

– ولذلك قررت البحث عن وظيفة شريفة .. مهما كانت متواضعة ..

– جهذا يبارك الله لك فى مالك وصحتك ..

– أتقبلنى للعمل عندك فى المحل .. حتى لو قمت بغسيل الصحون وتنظيف الأرض .

سقط السؤال على الحاج حسنين كالصاعقة . تاهت منه الإجابة وسط موجات المفاجأة . ارتعشت يده وهى تلقى بالطعمية الناضجة فى المصفاة المجاورة . نظر إلى عبده بعينين زائغتين . فأكمل عبده كلامه :

– واضح أننى أصبحت من أصحاب السوابق المرفوضين من كل الناس .

– العفو يابنى .. لكنك ترى أن الدكان صغير ولا يحتمل أكثر من صاحبه للعمل فيه ..

– لايهم ياعم حسنين .. لقد كنت أداعبك ..

تراخت أعصاب الحاج حسنين فجأة كما شدت فجأة . وارتسمت معالم الارتياح على وجهه المتغضن .

— أنت فى عينى وعلى رأسى يابنى :

طبعا أنا فى عينيك وعلى رأسك طالما كنت بعيداً عنك . تخاف ياعم حسنين على سمعتك منى .. وأنت نفسك لاسعر لك فى سوق البشر :. إنك لاتملك سوى هذا الدكان الحقير فى هذه الحارة التى لاتساوى بأكملها ثمن عربة من العربات التى يركبها أبو العز سلطان خال هانى صديق الدراسة .

— هل غرفتى القديمة لاتزال خالية ؟ !

— لحسن حظك لم يسكنها أحد منذ تركتها :. ولاشك أن أم ابراهيم سترحب بالغائب العائد :.

تماما كما رحبت بى ياعم حسنين .

نهض عبده حاملا الكيس الخيش على كتفه مودعا عم حسنين الذى حاول تطويل جلسته بقدر الامكان لكن عبده ذهب مستفسرا عن غرفته لأنه حتى الآن لايعرف أين سينام .

صعد السلم الخشبى المظلم المتهاوى تحت أقدامه . سمعت أم ابراهيم صرير الألواح الخشبية فأخرجت رأسها من بابها صارخة :

— من ؟ ! من الصاعد على السلم ؟ !

— أنا يا أم ابراهيم .. عبده

— بسم الله الرحمن الرحيم :. متى أتيت ؟ ! متى تم الافراج عنك ؟ !

— من ساعة فقط تم الافراج عنى ..

وقف عبده فى مواجهة أم ابراهيم المرأة التى تعدت الخمسين من عمرها : مد عبده يده للسلام فأخرجت أم ابراهيم يدها مترددة وسلمت لكنها ظلت تسد الباب بجسدها الضخم :

— حمداً لله على السلامة ..

— الله يسلمك .. ألا تزال غرفتى فوق السطح خالية ؟ !

— سكنت منذ اليوم الذى حكم عليك فيه بالسجن ..

— عجباً .. لكن عم حسنين قال لى إنها لاتزال خالية ..

— عم حسنين رجل عجوز ومخرف .. وليس له أن يتكلم عن ممتلكات الناس .

أتسمين هذه الخرابة ممتلكات ؟ ! أتعتبرين نفسك من أصحاب الأملاك والممتلكات . ألا يوجد إنسان فى هذا الكون يرى نفسه على حقيقتها ؟ !

— من سكن بالغرفة ؟ !

تلعثمت أم ابراهيم لكنها سارعت بالقول :

— تاجر قد الدنيا ..

— هل يمكن أن أقابله ؟ !

— انه يسافر كثيراً لتوزيع بضاعته ..

— وبالطبع فهو غير موجود الآن ؟ !

— اسم الله عليك .

لم تعد هناك جدوى من الجدل العقيم مع هذه المرأة البغيضة :

— شكراً .

قالها عبده وعاد أدراجه هابطاً السلم المتداعى . أصبح الكيس أكثر ثقلا على كتفه : خرج إلى الحارة مرة أخرى وسار بين الحفر الترابية والبقع

الطينية . نظر جهة اليمين فرأى عبدالسلام الحلاق وقد أعطاه ظهره منهمكا فى رأس أحد زبائنه. نظر جهة اليسار فلم ير عم مخيمر داخل دكان بقالته لكنه شاهد شيئا داكنا خلف مائدة الشراء فأيقن أنه ظهر عم مخيمر وقد انحنى بحثا عن شئ أو لاشئ .

كان عبده يتوقع شيئا من هذا السلوك . لكنه لم يتوقع أن يقابل بمثل هذا النفور وهذا الرفض الذى يبدو كأن هناك اتفاقا صامتا حوله . هؤلاء الفقراء المعدمون يرفضونه كما لو كان وصمة . فماذا سوف يفعل به الأغنياء إذا حاول الاحتكاك بهم ؟! إنه لن يعود إلى طريق الشر . لكن ماذا يفعل لو سارت الأمور على هذا المنوال ؟ ! لقد ارتكب جريمة لكنه كفر عنها ونال جزاءه . لكن هل يصدر المجتمع حكما عليه أقسى من حكم المحكمة ؟ ! ما فائدة المحاكم إذا كان المجتمع لايعترف بأحكامها ؟ ! هل يمكن أن يظل يكفر عن جريمته حتى نهاية عمره ؟! ألم يرتكب أحد من سكان الحارة جريمة ولو واحدة بعيدا عن عيون القانون ؟! هل تحولت الدنيا كلها إلى شرفاء أنقياء يرفضون الجريمة ولايغفرون للمجرم التائب ؟! هل هو المجرم الوحيد الملوث وسط بحيرة من الصفاء والطهارة ؟ !

تدفقت هذه التساؤلات على كيان عبده مع انتصاف النهار . خرج إلى الشارع العمومى وسط ضجيج العربات وزحام المارة وصرخات الباعة .

لم يبق سوى هانى . لكن هل لايزال يقطن فى شقته المفروشة النائية فى منطقة الهرم ؟ ! إنها تقع فى بقعة نادت فى الوصول اليها فى كل مرة زاره فيها قبل

القبض عليه . لكن لابد من المحاولة . ولابد أن تنجح المحاولة قبل غروب الشمس: فلم يبق أمامه سوى النوم على الرصيف أو البحث عن غرفة مؤقتة أو مجرد سرير في فندق رخيص : ولأول مرة منذ خروجه من السجن الذى لم يمض عليه أكثر من ثلاث ساعات شعر أنه خسر طمأنينة اليأس التى طالما صاحبته في السجن !

— ٣ —

بدت الأهرامات شامخة وقد أولت ظهرها للشمس التي بدأت في الميل نحو الغروب. وقف الأتوبيس في المحطة قبل الأخيرة ونزل منه عبده بعد أن جذب الكيس الخيش من بين أرجل الواقفين على السلم .

نعم : إنها المحطة التي اعتدت النزول عندها من قبل . وهذا هو الكازينو الذي يصطخب بالضحك والرقص والغناء ليلا . وها هو الشارع الذي يمكن أن يؤدى إلى منزل هانى : أوحشتنى ياهانى كثيرا . كنت لى نعم الصديق ولو أننى أعتب عليك عدم زيارتك لى فى السجن . لكن لك العذر كل العذر . فأنت تنتمى إلى قمة المجتمع فى حين نشأت أنا فى القاع . ومع ذلك كنا متشابهين فى كل شئ . حتى فى الفشل الدراسى وان اختلفت أسباب الفشل .

سار عبده إلى نهاية الشارع ثم انحنى إلى اليمين ثم إلى اليسار واتخذ طريقا ترابيا صغيرا بين الأراضى التى كانت حقولا لكن يبدو أنها لاتنبت شيئا الآن . هناك الساقية المهجورة . والنورج الذى علاه الصدأ ، والصمت الذى يزول فقط مع هبات الرياح .

لماذا اتخذت هذا السكن بالذات ياهانى وأنت تستطيع السكن فى أرقى أحياء القاهرة ؟ ! إنه مكان مثالى لوكر عصابة ! لقد عرف بعد دخوله السجن أن هانى عمل سكرتيرا لخاله المليونير أبو العز سليان : فهل لايزال فى وظيفته ؟ ! وهل يمكن أن يتوسط له لدى خاله لعله يجد له وظيفة فى احدى شركاته المتعددة ؟! حتى لو اشتغل ساعيا ؟ !

رأى عبده البيت وسط الحقول الجرداء يقف كيانا مهجورا . نعم أنه البيت الذى بلغه دون أن يضل طريقه لأول مرة . كان البيت يتكون من دورين كل منهما به غرفتان مفروشتان فرشا متواضعا. ضغط يده على الجرس لكن أحدا لم يفتح الباب . شك فى أن يكون التيار الكهربائى منقطعا فدق بكلتا يديه على الباب لكن أحدا لم يفتح : إنه البيت بعينه ، لكن ألا يمكن أن يكون هانى قد غادره إلى شقة أخرى ؟ ! ضغط الجرس ودق الباب لكن أحدا لم يفتح . لعله ذهب لشراء شئ وسيعود بعد قليل : لكن الانتظار ممل ومخيف وهو غير متأكد من أى شئ . لكن إذا طال الانتظار فسيعود أدراجه ليجد مكانا ينام فيه هذه الليلة على الأقل ويتناول لقمة : لقد تذكر فى هذه اللحظة بالذات أنه لم يأكل شيئاً منذ الصباح . كانت معدته خاوية من الطعام لكن عقله كان متخما بالهواجس والمخاوف .

جلس على حجر عريض كالتابوت أمام باب المنزل وقد بدأ الغروب يصبغ الأشياء بلون رمادى مخيف مع لسعة خفيفة من برد مارس : ولم يكن هناك صوت سوى حفيف النخيل والرياح ، وعواء الكلاب البعيدة ، ونهيق بعض الحمير .

إنه لايستطيع الانتظار حتى يحتوى الظلام كل الأشياء . نهض ونظر نحو الطرقات البعيدة فوجد بقعتين من الضوء لم يرهما من قبل : كبرت البقعتان

فأزالتا الوحشة التى كانت قد تضاعفت عندما تلاشت زقزقة العصافير التى سكنت إلى أعشاشها فى الشجرة المقابلة. إنها سيارة قادمة فى اتجاه المنزل . لعلها سيارة هانى . إن كل مايتمناه الآن أن يتناول لقمة ويأوى إلى الفراش : أى فراش لايهم . الطيور أسعد من بنى الإنسان ، انها تعرف تماما كيف وأين تنام ، أما الإنسان فلا يجد أين يسند رأسه . اقتربت السيارة فاكتشف أنها ليست سيارة هانى . سمع ضحكات داخلها فى حين أنه يعرف أن هانى يعيش بمفرده . توقفت السيارة أمام المنزل فى حين هم عبده بمغادرة المكان : لكن قدميه أصيبتا بما يشبه الشلل المفاجئ عندما وجد هانى يهبط من العربة ومعه فتاة سمراء لعوب .

توقف الاثنان وجها لوجه ثم انطلقا ليأخذ كل منهما الآخر بين ذراعيه: والفتاة لاتفهم شيئاً .

— أهلا عبده .. مفاجأة لم تكن فى الحسبان !

— أوحشتنى كثيرا ياهانى .. ولو أننى أعتب عليك عدم سؤالك عنى فى السجن ..

— كنت فى دوامة سأحكى لك عن تفاصيلها .. طبعا متعب وجوعان ..

— لايمكن أن تتصور حالى ..

— هيا بنا .

أولج هانى المفتاح فى الباب . حمل عبده الكيس الخيش على كتفيه ، سارت الفتاة وراء عبده متفحصة اياه من أم رأسه إلى أخمص قدميه : دخل الجميع المنزل وأضاء هانى النور . رأى عبده نفسه لأول مرة فى مرآة المدخل فهاله الهالات السوداء حول عينيه وشعره الأشعث . لاحظه هانى فقال :

— أدخل الحمام .: عليك بحمام ساخن وعند خروجك ستكون فيفي قد أعدت لنا العشاء وخلافه ..

— لا أعرف كيف أشكرك ياهاني ..

— لاتقل مثل هذا الكلام ياعبد الورد :: خيرك سابق على الجميع ::

— لم يكن خيرا من عرق جبيني ..

— كان خيرا والسلام ..

دخل عبده الحمام فى حين دخلت فيفي المطبخ وهانى غرفة النوم فى الدور العلوى الذى صعد اليه على سلم حلزونى فى داخل الصالة . البيت متواضع الأثاث والفراش لكنه مريح وهادئ . هبط هانى من الدور العلوى مرتديا بيجامة وروب فقام بفك الكيس الخيش الذى تركه عبده عند المدخل وأخرج منه ملابسه : جاءت فيفي فأعطاها الملابس وطلب منها الصعود لوضعها فى دولاب غرفة النوم ، واعداد احدى بيجاماته ليرتديها عبده . صاح هانى مناديا عبده :

— ماذا جرى ياعبد :. كانت عادتك الغناء فى الحمام ؟ !

لم يرد عبده . اقترب هانى من باب الحمام ووضع فمه عليه معيدا السؤال فجاء جواب عبده مقتضبا :

— راحت أيام المزاح والفرفشة ياهانى ..

— ستعود أفضل مما سبق .

أرسل هانى صفيرا جزلا وذهب للجلوس إلى المائدة . فتح احدى زجاجات النبيذ وصب لنفسه نصف كوب شربه دفعة واحدة : هبطت فيفي

على السلم الحلزونى مرتدية قميصا شفافا يكشف أكثر مما يخفى . امتزج لون القميص الوردى ببشرتها السمراء فصب هانى النبيذ مرة أخرى وشربه دفعة واحدة و فتحت فيفى باب الحمام ووضعت البيجامة خلفه وأغلقته مرة أخرى ؛ ذهبت إلى المطبخ وعادت بالدجاج المشوى والكباب والسلاطة التى وضعتها على المائدة. جلست على كرسى ملاصق لهانى الذى أخذها بين أحضانه وقبلها قبلة سريعة لكنها نهمة :

— هل هو صديق قديم ؟ !

— وعزيز جداً . .

— أتريد أن أستضيفه أنا أيضاً ؟ !

— البيت بيتك يافيفى . .

— والأمر أمرك ياحبيبى . .

قبلته فى شفتيه حين خرج عبده من الحمام فلم يلحظ جلستها وانما وقعت عيناه على أطباق الدجاج المشوى والكباب والسلاطة : فقال له هانى وهو يحتضن فيفى :

— هيا ياعبد . . لاتضيع وقتا واهجم على المحمر والمشمر . .

ابتسم عبده ابتسامة عريضة لأول مرة وجلس إلى المائدة . وانهمك الثلاثة فى تناول الطعام . صب هانى نبيذا فى كوب عبده الذى حاول منعه لكن هانى دهش وأصر :

— ماذا جرى لك ياعبد ؟ ! جعلك السجن تزهد فى الدنيا تماما ؟ !

— أنا فى حيرة . . المستقبل مظلم أمامى . . حتى حارتنا التى لاتساوى ملاليم لفظتنى اليوم . .

— من اليوم ستعيش معى لأننى فى حاجة إلى خبرتك وحماك وقيادتك مثل أيام زمان .. وخصوصا أن المال بدأ ينضب ..

تناول عبده فخذ دجاجة بين فكيه وعندما أخرج العظام حشر بعض السلاطة خلفه وقال :

— لم تحك لى عن أحوالك ؟ !

صب هانى لنفسه بعض النبيذ وقال :

— منذ ليلة القبض عليك انتابنى احساس عارم بالضياع ، بل وتمنيت فى داخلى أن أسجن معك . وكان فى امكانك أن تجرنى أنا وأسامة معك فى القضية وخصوصا أن نصف المال المسروق من الخزانة كان فى حوزتنا . لكنك كنت نعم الصديق الوفى .

— وطبعا تم صرف المبلغ على داير مليم ؟

— أنت أعلم بأخيك .. فى كفه ثقب لا يمكن سده ..

— وأسامه ؟ !

— قام بصرف المبلغ على احدى راقصات شارع الهرم . ولأنه عضلات بلا مخ فقد انتهى به الأمر فتوة فى كازينو الراقصة التى أحبها .

صب عبده كوبا من الماء المثلج فى جوفه ثم أشعل سيجارة أخرجها من العلبة الكبيرة التى ظلت تعزف موسيقاها الرقيقة لحظات . لاحظ هانى صمته فقال :

— لك الحق فى أن تلومنا على صرف المبلغ . ولكنى أقسم لك أننى سأفعل المستحيل لتنفيذ كل ما تطلب ..

ـ لا مكان للوم بيننا .. لقد قررت قطع صلتى بالماضى تماما وبدء مستقبل نظيف ..

ـ ولكن كيف نعيش فى البذخ الذى كنا فيه ؟ ! وأنت تعلم أن الوظائف النظيفة .. نظيفة أيضاً من المال الوفير ؟ !

ـ القناعة خير من بذخ يعقبه سجن ..

ـ لك كل الحق فى هذا .. فأنا لم أجرب السجن مثلك ..

ـ وأنت تستطيع أن تساعدنى فى بدء حياة شريفة ؟ !

ـ كيف ؟ !

ـ خالك ؟ !

فوجئ هانى بالكلمة تمرق بجوار أذنه كالرصاصة . إن خاله هذا موضوع كبير فى حد ذاته يصعب الخوض فيه . والمسألة ليست بالبساطة التى يظنها عبده . لكنه لايستطيع أن يصده بعد وقفته العظيمة معه فى القضية . قرر أن يحكى له كل الخلفيات ويترك له الحكم .

ـ سأحكى لك كل شيء ولك أن تحكم فى النهاية كما تشاء .. قلت إن إحساسا عارما بالضياع انتابنى ليلة القبض عليك . كنت أعتمد تماما على عقلك وخططك . لكننى قاومت الاحساس المرعب وقررت لأول مرة أن أخطط لنفسى . ذهبت إلى أمى وأعلنت توبتى ورجوتها أن تتوسط لى عند خالى كى يمنحنى وظيفة فى شركة من شركاته المتعددة . وكانت فرحة العمر لأمى التى طارت إلى أخيها الذى قاوم الفكرة فى البداية مؤكدا فشلى فى كل شيء أمد إليه يدى . لكنه تحت الحاح أمى قبلنى فى سكرتارية مكتبه بمرتب مئتين جنيه فى الشهر . كنت لا أفعل شيئا سوى تسجيل البريد القادم أو

المرسل من المكتب: واستقرت بى الأحوال بعض الشىء . لكننى لم أقنع بهذا الروتين اليومى الممل ، فقررت تدعيم مركزى بالتقدم لطلب يد صفاء ايمانا بمبدأ زيتنا فى دقيقنا . لم يرفض خالى ولم يوافق لأنه ترك القرار لصفاء . استبشرت خيرا لكن القلق لم يزاولنى لعلمى أن القرار كان دائما قرار خالى. رفضت صفاء طلبى باصرار عجيب: وأدركت أن خطتى قد تلاشت . اعترانى اليأس لأن المرتب لم يكن يكفينى . فقررت القيام بمغامرة جديدة . هذه المرة بمفردى. استوليت أو قل سرقت مفاتيح الخزانة من وهبه الصراف وتكتّم الصراف ضياع المفاتيح على أمل أن يجدها فى أسرع وقت بلا ضجة . وظل بجوار الخزانة طيلة اليوم فى حين كانت عيناه تمسحان كل ركن فى الغرفة ، فكرت فى كيفية ابعاده مؤقتا عن الخزانة . دخلت إلى خالى وقلت له ان العمال متذمرون لأن وهبه لم ينته بعد من كشف الحوافز والعلاوات والأرباح فى حين أن العيد على الأبواب . ثار خالى وبمجرد خروجى ضرب الجرس طالبا وهبه الذى أسرع بالدخول فأسرعت بدورى إلى الخزانة وفتحتها وقبضت على أكبر مبلغ يمكن أن تصل إليه يدى وأقفلت الخزانة وألقيت بالمفاتيح على مكتب وهبه ، وألقيت بالمبلغ فى حقيبتى وغادرت المكتب إلى الشارع إلى منزل أسامة حيث أخفيت عنده المبلغ .

سأله عبده :

– وكم كان المبلغ ؟

– سبعة آلاف وكسر ..

– لابد أن الأمر انكشف ..

– تماما : : عاد وهبه إلى مكتبه فوجد المفاتيح فأسرع بفتح الخزانة فوجد العجز فصرخ صرخة سمعتها الإدارة كلها وسقط فاقدا الوعى على أثرها لدرجة

أنه أصيب فى رأسه بجرح عميق على أثر ارتطامها بحافة المكتب : وبعد اسعافه تولى خالى التحقيق بنفسه ورفض ابلاغ الشرطة بالموضوع مما أثار دهشة موظفى المكتب واعتبروا هذا كرما منه .

— وماذا كانت النتيجة النهائية ؟ !

— فى اليوم التالى ذهبت إلى مكتبى متظاهرا بجهلى التام بكل ما دار . لكننى فوجئت بخالى يستدعينى إلى مكتبه الذى جاء إليه مبكرا على غير عادته دخلت فأحسست بالشرر يتطاير من عينيه وقال إنه سيكتفى بطردى وهبه نتيجة لاهماله ، كما أنه لن يطالبنى بالمبلغ لأنه سيكتفى بطردى . وكل ما يريده منى ألا يرى وجهى مرة أخرى ..

— هل دافعت عن نفسك ؟ !

— أقسمت بكل الايمان المغلظة .. وأديت كل الأدوار التى تؤكد براءتى . لكنه لم يعبأ وطردنى من المكتب شر طردة ..

— الله يبشرك بالخير ياصديقى .. وكنت أظنك واسطتى عنده ؟

— ومع ذلك إذا أمرتنى بأى شئ فسأنفذه فورا .

— من الأسلم أن أذهب إليه بنفسى لعل وعسى .. لكن ألا تعرف أية واسطة أخرى تمكننى الدخول منها إليه ؟ ! وأنا لدى خبرات كثيرة ولا أشترط وظيفة محددة .

أطرق برأسه . لمح فيفى وقد غلبها النعاس وتكاد تسقط من على الكرسى . ربت على خدها وطلب منها الصعود للنوم . صعدت السلم الحلزونى وكأنها منومة تنويما مغناطيسيا . تتبعها عبده بعينيه إلى أن اختفت . ركز نظراته على هانى الذى ومضت عيناه قائلا :

— وجدتها ..

— إلى بها ..

— فتوح الديب ؟ !

— لقد سمعت بهذا الاسم من قبل !

— أين ومتى ؟ !

— لا أتذكر الآن .. قل لى عن خطتك فورا :؟

— فتوح الديب هذا من أعز المتعاملين مع خالى : انه رجل غامض أتى إلى المكتب مرة واحدة وترك معى يومها كارته الذى احتفظت به عندما رأيت مدى ترحيب خالى به . بعدها سافر إلى بيروت ولم يعد حتى طردى من المكتب ..

— فهمت .. تقصد أن أحمل الكارت كمدخل لخالك ؟ !

— تماما .. وبمكننا أن نكتب ما نشاء عليه ..

— لكن المهم أن تكون معلوماتك عن تحركات فتوح الديب هذا صحيحة .. والا وقعت فى مأزق قد لا أخرج منه ..

— لا تحاول اختراع أكاذيب عن فتوح الديب والا انكشف أمرك : فالرجل غامض ولتكن غامضا بدورك حتى يهابك خالى .

— عين العقل .

تثاءب عبده ونهض من مكانه وتبعه هانى الذى سأله :

— فى أى غرفة تريد النوم ؟ !

— فى الغرفة الخالية . لا أريد أن أبدأ أول يوم لى خارج السجن مع النساء أو الخمر .

— لقد تغيرت كثيرا يا عبده ..

— لا شيء يغير الانسان مثل السجن . تصبح على خير ..

— وأنت من أهله ..

صعد عبده السلم الحلزونى وتبعه هانى .

- ٤ -

جلس أبو العز سليمان فى مكتبه الفاخر الانيق يرد على أسئلة أحد الصحفيين الذى جاء خصيصا لكتابة تحقيق كبير عن انجازاته ومشروعاته العديدة . قال أبو العز للصحفى :

- سأوفر عليك اختراع الاسئلة لأننى سأحكى لك قصة نجاحى بطريقة مركزة من الألف الى الياء . وعليك أن تصوغها بالطريقة التى تراها صحيفتك . فمنذ تطبيق سياسة الانفتاح رأيت أن فرصة العمر قد واتتنا جميعا وعلينا بالامساك بها حتى لا تضيع منا . وقمت باستيراد كل شيء حرم منه الناس . العطور الفرنساوية . التفاح . أدوات التجميل . حصلت على توكيلات شركات عالمية لتصنيع المياه الغازية والشيكولاته . أنشأت شركة لتقسيم الأراضى وبناء الفيلات الفاخرة على النيل فى القاهرة وعلى البحر فى الاسكندرية وبور سعيد . أقمت شركة للسياحة العالمية وشركة أخرى لتوزيع أفلام الفيديو . باختصار تاجرت فى كل شيء يخطر أو لا يخطر على بالك .

قاطعه الصحفى بسؤال :

— وكم يبلغ رأس مال مشروعاتكم ؟ !

— بصراحة لا أستطيع أن أحصر أموالى لأننى أقوم بتوظيفها كلها فى خدمة شعبنا . ولعلك تلاحظ الآن أنك تجد التفاح الأمريكى الفاخر عند الفكهانى فى الوقت الذى لاتجد فيه البرتقال البلدى .. وهذا أكبر دليل على ارتفاع مستوى شعبنا بعد الانفتاح فى سياسة الاستيراد . استيراد أى سلعة من أى مكان ..

ثم قام أبو العز وفتح علبة السيجار الفاخر وقدمها للصحفى الذى تناول سيجارا أشعله له أبو العز . نفث الصحفى الدخان من أنفه لكن سعالا شديدا داهمه . فضحك أبو العز :

— عندما تعتاد عليه سيصبح متعة عمرك ..

قال الصحفى والدموع تكاد تطفر من عينيه :

— لكن ماذا عن خروجك من مجلس الشعب فى الانتخابات الأخيرة ؟

— لابد لكل ناجح من أعداء .. ولذلك تكاتف على الحاقدون وضللوا أبناء دائرتى الطيبين الأنقياء وأغروهم بوعود لا يستطيعون تحقيقها لأنهم لا يملكون الملاليم فى حين أملك أنا الملايين التى يمكن أن تجعل من الدائرة جنة الله على أرضه .

— وما انجازات سيادتكم فى عهد تمثيلكم للدائرة فى مجلس الشعب ؟ !

— فى ذلك الوقت لم تكن سياسة الانفتاح قد طبقت .. ولذلك لم أتمكن من خدمتهم كما أشتهى . لكننى قررت أن أفوز فى الانتخابات القادمة بأى ثمن من أجل مستقبل أبناء دائرتى .

جمع الصحفي أوراقه ووضعها في حقيبته وهم بالوقوف قائلا :

— شكرا على الوقت الذى أضعتموه معى . .

— انتظر لحظة . .

وأخرج أبو العز لفافة فاخرة قدمها للصحفي .

— هذا تذكار بسيط . . ونحن دائما فى خدمة الصحافة والاعلام .

ثم يمد الصحفي يده بل قال :

— شكرا . . كنت أؤدى واجبى .

وتحرك الى أن وصل الى الباب . فقال أبو العز بصوت عال :

— اذا لم تأخذها . . سأعتبرك من الحاقدين . ء

— آسف . . عن اذنك . .

وخرج الصحفي مسرعا وأغلق الباب خلفه . فصاح أبو العز وهو يدق بيده على المكتب فى عصبية :

— انه منهم . . إنه منهم . . كانت غلطة أن أدلى بهذا الحديث .

جلس أبو العز الى مكتبه وأعاد اللفافة مرة أخرى الى الدرج وأدار مفتاح الديكتافون وقال :

— دع سماحة وحمادة وجميل يدخلون الآن .

أقفل الديكتافون وفى اللحظة نفسها دخل سماحة وحمادة وجميل . تجاوز الثلاثة الأربعين من عمرهم . يرتدون الحلل الأنيقة وتسبقهم رائحة العطور التى تشع منهم . وجوههم لا تدل على السماحة أو الأصل الرفيع . يتمتعون بحيوية فائقة مثل حيوية أبى العز تماما برغم أنه جاوز الخمسين . يوجد جرح قديم فى الجانب الأيسر من وجه سماحة ، يبدو أنه ضربة مطواة . أما حمادة

فقد ظهر قطع طولى فى شفته العليا . أما جميل فيتميز بجسم ضخم كأنه مصنوع من الصخر .

جلس الثلاثة فى مواجهة أبى العز الذى قام من على مكتبه وارتكز على حافته مقدما لهم علبة السيجار فتناول كل منهم سيجارا وضعه فى جيبه تأدبا . حاول سماحة القيام تأدبا فى حضرة أبى العز لكنه ضغط على كتفه فأجلسه :

— اجلس ..أريد أن أعرف ماذا فعلت بخصوص أذونات الاستيراد فى الميناء ؟ !

— كله تمام يا بيه ..

— يعنى جاهزين ؟ !

— من الآن يا بيه ..

— عظيم .. وانت يا حمادة ؟ !

قال حمادة وهو يركز بصره على الخاتم السوليتير الذى يرتديه أبو العز فى اصبعه الأخير :

— لا يوجد واحد من أبناء الدائرة الآن إلا ويلهج بحمد سيادتك ..

— يعنى النجاح مؤكد ؟ !

— مئة فى المئة ..

— تمام .. وأنت يا جميل ؟ !

ابتسم جميل ابتسامة عريضة فيها كثير من الغباء :

— تحت أمر السيادة ..

فى هذه اللحظة دخل السكرتير وقدم لأبى العز كارتا . خرج السكرتير وعاد أبو العز الى مقعده واضعا النظارة ذات الاطار الذهب على عينيه وقرأ :

« فتوح الديب » ثم أدار الكارت فقرأ : « برجاء مساعدة حامله عبده عفا الله فى العثور على وظيفة فى شركاتكم . مع حبى » . أعاد أبو العز النظارة الى مكتبه وقال للثلاثة :

— هل عاد فتوح الديب من بيروت دون أن أعرف ؟ !

أجاب الثلاثة فى صوت واحد وان كان متفاوت السرعات :

— لم يعد بعد .. لأن مهمته لم تنته .. وظروف الحرب الأهلية صعبة .

أدار أبو العز مفتاح الديكتافون :

— دعه يدخل .

فتح الباب ودخل عبده مبتسما ابتسامة خفيفة عندما امتدت يده بالسلام . تفحصه أبو العز فى لحظة فلاحظ أنه يرتدى حلة تشبه احدى حلل هانى . وعندما دقق النظر اكتشف أنها هى لأن الزرار الأسفل كان مقطوعا ولايزال . تذكر أبو العز أيضا أن وجه عبده ليس غريبا لكنه لم يستطع أن يحدد أين ومتى شاهده من قبل ؟ !

أشار أبو العز لعبده بالجلوس وعندما جلس واجهه بسؤال :

— متى عاد فتوح من بيروت ؟ !

— لا أعلم بالضبط .. لأننى لم أحصل على الكارت منه شخصيا ..

— وكيف حصلت على الكارت ؟

— أبى صديق حميم لفتوح بيه الديب ..

— وما العمل الذى يمكن أن تقوم به فى مشروعاتنا ؟ !

— أجيد أعمال الميكانيكا والسباكة على مستوى المشروعات الكبيرة ..

— ومؤهلاتك ؟ !

ـ لدى خبرة تفوق أية مؤهلات : ، وسيادتك يمكن أن تجربنى ..

ـ أتعرف هانى عبدالعظيم الزهيرى ؟ !

سقط السؤال على رأس عبده كالصاعقة من حيث لايدرى : تحفز للاجابة لكن عقله لم يسعفه . ارتسمت ملامح الحيرة على وجهه فتذكر أبوالعز أين رآه من قبل ؟ رأى صورته فى الصحف فى حادث السطو على خزانة شركة أبو الفوارس للاستيراد والاستثمار . أجاب عبده دون تركيز :

ـ من هانى عبدالعظيم الزهيرى ؟ !

ـ مجرد سؤال خطر على بالى .

ـ لا أعرف أحدا بهذا الإسم .

ـ وما مسوغات التعيين التى يمكن أن تقدمها ؟ !

ـ أستطيع الحصول على شهادات خبرة من جهات مختلفة ..

ـ وصحيفة السوابق ؟ !

هذا الرجل المرعب يسألنى أسئلة غريبة تجعلنى أشعر بالعرى أمامه : لكننى قبلت التحدى .

أجاب عبده :

ـ طبعا سأحضر صحيفة السوابق ..

ـ عندما يمكنك الحصول عليها .. ستجد الوظيفة جاهزة .

ليست هناك جدوى من المزيد من الحوار ، كما أنه ليس هناك أمل فى العمل مع هذا الرجل الغامض :

أحس عبده بالطريق المسدود الذى دخله دون أن يدرى : نهض ومد يده بالسلام لأبى العز وهو يقول :

— شكرا .. وهو كذلك ..

وصل عبده إلى الباب فقال أبو العز :

— وسأتصل بفتوح لأؤكد له بدورى أن توصيته على العين والرأس .

محار هذا الرجل عميقة ويريد إنهاء المقابلة بالضربة القاضية . لكننى أشم رائحة غريبة لابد أن أعرف كنهها .

قال عبده وهو يفتح الباب :

— شكرا

وخرج .

— ٥ —

غمرت أضواء الثريات قاعة الاحتفالات فى نادى الجزيرة . حضر عيون القوم الحفل الذى أقيم للمغتربين ورجال الأعمال القادمين من أمريكا فى زيارة سريعة للوطن والأهل . تألقت القاعة بالوجوه النضرة والعطور المثيرة للنشوة : تنافس الجميع فى الجمال والأناقة . تناثرت الكلمات الفرنسية والجمل الانجليزية والتعبيرات الألمانية وسط كؤوس المثلجات والشامبانيا والسيجار الهافانا : فى أحد الأركان انتحى أبو العز سلمان ببعض رجال الأعمال يتحدث معهم عن استيراد أحدث الآلات لصنع الآيس كريم والشيبس .

لفتت صفاء الابنة الوحيدة لأبى العز نظر الجميع بأناقتها ورقتها وجمالها : لم تكن تتجاوز العشرين . فى عينيها جاذبية آسرة وشعاع غامض ينطق بحزن دفين ممتع . كانت ترتدى فستانا طويلا من الشيفون الأحمر يكشف عن

ذراعيها وبعضا من ظهرها ، وانعكست حمرته على حمرة وجنتيها فزادتها توهجا وسط تاج الشعر الأسود الفاحم اللامع المحيط بوجهها الأبيض الذى ينتهى بذقن رقيقة ذات غمازة ثابتة فى أسفلها .

كانت ملتقى العيون والابتسامات ، لكن عينى العقيد حافظ أمين ضابط المباحث فى قسم الشرطة التابع له النادى تمسحتا بصفاء ولم تفارقها . شاب تجاوز الثلاثين بقليل يجمع بين الوسامة والحيوية .

آه لو تزوج الإنسان من هذا السحر الرقيق الذى يسير على قدمين ؟ ! أيتها المخلوقة الرائعة . هل تأكلين ما يأكله البشر وتشربين ما يشربه الناس ؟ ! اننى أحسد الأرض التى تلمسينها بقدميك . إننى لايمكن أن أحبك من أول نظرة كما يقولون . لأن أول نظرة تعنى أنه هناك آخر نظرة . وأنا لا أريدك أن تغيبى عن نظرى بالمرة . سأتحدث معك مهما كانت النتيجة .

تقدم حافظ صوب صفاء عندما وجدها تبحث عن مائدة تضع عليها كأسها الفارغ ومبتعدة فى الوقت نفسه عن صديقاتها . أسرع واستأذنها وأخذ الكأس ووضعه على أقرب مائدة . وأسرع عائدا اليها عندما سمع الصوت الملائكى يهمس :

– مرسى .

– العفو ياأفندم . سيادتك تأمرى .. حضرتك مع المغتربين أم مع المقيمين ؟ !

ضحكت برقة ساحرة وقالت :

– مع المقيمين .. وحضرتك ؟ !

– أنا مع المقيمين جدا .. أنا عقيد بقسم الشرطة فى هذه المنطقة ..

ـ لكنك لاترتدى ملابس ضباط الشرطة ؟ !

ـ لأنني ضابط مباحث ..

ـ وهل هناك من جئت للقبض عليه ؟ !

ضحك حافظ بسعادة وقال :

ـ جئت مدعوا مثل حضرتك تماما .. ولذلك يشرفني أن أقدم نفسى . أنا العقيد حافظ أمين ..

ـ وأنا صفاء أبو العز سلمان ..

ـ أهلا وسهلا .. حضرتك ابنة المليونير أبو العز بيه سلمان ..

ـ تمام .

نظر حافظ فى اتجاه الركن الذى يقف فيه أبو العز فوجده يراقب ابنته بعيون الصقر ولمح ملامح عدم الارتياح عندما رأى وقفة صفاء معه . قال حافظ وهو يشعر ببعض الحرج :

ـ لا أرى فى أصابع حضرتك خاتم خطوبة أو زواج ؟ !

ـ لازلت فى السنة النهائية فى كلية التجارة وموضوع الزواج لم أفكر فيه بعد ..

ـ لابد أن لحضرتك مواصفات خاصة لابد من توافرها فى شريك العمر ..

أحست صفاء أن حافظا يجرفها إلى منطقة وعرة من الحوار لكنها لم تمانع :

ـ لايمكن اخضاع الإنسان لمواصفات معينة ، لأنه ليس سلعة قابلة للشراء والبيع .

– كلامك كله فلسفة عميقة . لأول مرة أرى اجتماع الجمال والحكمة معا !

ابتسمت صفاء للمداعبة الرقيقة فتجرأ حافظ وقال :

– أتمنى أن أتشرف بلقاء أبى العز بيه .. فلابد أنه رجل ساحر .. مثل ابنته تماما .

– حضرتك تبالغ ..

– ولماذا أبالغ وأنت السحر نفسه ؟

– هل هناك موضوع محدد تريد أن تحدث فيه أبى ؟ !

إن كل جملة تقولينها تضيف الجديد إلى رصيدك . الجمال والحكمة والذكاء وقوة الشخصية ..

– قد يكون هناك موضوع وقد لايكون . لكن يكفينى شرف اللقاء والتعارف .. وأنا دائما فى الخدمة ..

– مرحبا بك فى أى وقت ..

صدحت بلابل السعادة فى قلبه فأصيب بنشوة مفاجئة .

– هذا شرف لم أكن أحلم به .

فجأة وجد حافظ أبا العز يقف بينه وبين صفاء قائلا لها :

– أنا عائد إلى المنزل لمكالمة هامة من بيروت ..

قالت صفاء :

– سأعود معك ياأبى . ولكن قبل ذلك يشرفنى أن أقدم لك العقيد حافظ أمين .

إرتجفت عين أبى العز اليسرى لكنه قال متعجلا :

ـ أهلا وسهلا .. فرصة سعيدة .. عن اذنك ..

وسرعان ما أمسك بيد ابنته وقادها صوب الباب الخارجى حيث وجد عربته المرسيدس السوداء الفاخرة فى انتظاره . أسرع السائق بفتح الباب وركبت صفاء وأبوها .. وانطلقت العربة فى ضوء قمر الربيع إلى شوارع الزمالك ..

أوشكت صفاء فى العربة أن تحدث أباها عن حافظ لكن أباها لم يمهلها وألقى بسؤاله :

ـ فيما كنت تتحدثين مع هذا الضابط ؟ !

ـ أبدا .. كان حديثا عابرا عن المغتربين والشرطة والجامعة ..

ـ فقط ؟ !

ـ وهو يريد أن يلقاك أيضا ؟ !

تحرك أبو العز فى شبه انتفاضة داخل ظلام العربة . أحست صفاء بحركته مع سؤاله الحاسم :

ـ لماذا ؟ !

ـ لم يقل ! !

ـ متى ؟ !

ـ لم يحدد ! !

ـ غريب أمر هذا الضابط .. ولماذا لم يواجهنى ويكلمنى بصراحة ؟

ـ لم يكن يعرف حتى أننى ابنتك الا بعد أن أخبرته ..

استراح أبو العز لهذا . فقد شعر أن اهتمام حافظ منصب على صفاء وليس عليه شخصيا ..

— أستطيع أن أمنحه من وقتى عشر دقائق .

وصلت العربة الى باب الفيلا الذى أسرع البواب الى فتحه حيث دخلت.

فى اليوم التالى دهش حافظ وسعد فى الوقت نفسه عندما فوجىء بالمليونير أبو العز يرد على مكالمته التليفونية بترحيب عجيب ويحدد له مساء اليوم نفسه للقائه فى فيلته .

فى الميعاد كان حافظ يدق جرس الفيلا وقد علت دقات قلبه . فتح الخادم الباب . أصيب حافظ ببعض الاحباط عندما لمح مظاهر الثراء والبذخ سواء فى الأثاث أو المفروشات أو الجدران . كل شىء مستورد من البلد الذى اشتهر بصنعه . الثريات المصنوعة من البللور البلجيكى . الطنافس الشنواه والتبريزى . المرايا التى تشبه مرايا القصور الملكية . اللوحات التى رسمها كبار الفنانين . لكن تأمل حافظ لم يستمر بدخول أبى العز الصالون . نهض حافظ للمصافحة وجلس الاثنان . لم يضيع أبو العز وقتا :

— تحت أمرك .

— العفو .. يا أفندم . . جئت فى موضوع حساس بعض الشىء لكننى أرجو فهم قصدى النبيل ..

— تفضل ..

زاد حرج حافظ فزادت سيطرة أبى العز على الموقف بعد أن عرف تماما أبعاد الرجل . قال حافظ :

— عندما رأيت الآنسة صفاء .. بهرت بأخلاقها ورقتها وعلمها .. وطمعت فى شرف التقدم لطلب يدها .

استرخى أبو العز فى مقعده . ثم مال لتناول سيجار من العلبة الموسيقية على المائدة أمامه وأشعله واسترخى مرة أخرى :

ــ ما عملك بالضبط يابنى ؟ !

ــ عقيد مباحث ::

ــ وطبعا تتعامل مع المجرمين والخطرين ؟ !

ــ إنها طبيعة عملى ::

ــ وهل تظن أن فتاة فى رقة صفاء تستطيع أن تعيش مع زوج يتعامل مع مثل هذه الأنماط ؟ !

ــ إن تعاملى مع هذه الأنماط شئ .: وشخصيتى كزوج وأب شىء آخر تماما ..

ازداد استرخاء أبى العز فى كرسيه وقال وهو ينفث دخان السيجار نفثات متقطعة متأنية :

ــ وهل تتساوى أخلاق الذى يتعامل مع الهوات بأخلاق الذى يتعامل مع المجرمين ؟ !

مس السؤال كبرياء حافظ فى الصميم لكنه تجلد فى صبر عجيب :

ــ اسمح لى أن أختلف تماما معك فى هذا !

ــ لابد أن نختلف لأن رأيى هو الصحيح دائما ..

ــ من الطبيعى أن يظن كل إنسان أن رأيه هو الصحيح والا لما دافع عنه أصلا .

ــ ماذا تقصد ؟ !

ــ اننا بهذا سنخرج عن الموضوع الذى جئت من أجله خصيصا . :

ــ لقد قلت لك رأيى ؟ !

ــ ورأى الآنسة صفاء ؟ !

— رأيها هو رأيي ..

لم يجد حافظ جدوى فى استمرار الحوار العقيم نهض مستأذنا فنهض أبو العز مسرعا فى أعقابه قائلا :

— لم تتناول شيئا بعد ؟ !

— شكرا ..

قالها حافظ فى اقتضاب شديد واندفع نحو باب الخروج . وكانت صفاء تقف خلف احدى الغرف المطلة على الممر المؤدى إلى الخروج وتنظر حيث وقف أبوها يودع ضيفه الذى قال له :

— قد أتفق مع سيادتك فى أن أخلاق المتعامل مع الهوات لاتتساوى مع أخلاق المتعامل مع المجرمين . ولكن بشرط أن يحدد كل منا مفهومه للبك ومفهومه للمجرم ..

— لا أفهم ماذا تقصد ؟ !

— لا أعتقد أن ذكاء سيادتك يقصر عن فهم هذه الملاحظة العابرة .. السلام عليكم ..

هبط حافظ سلم الفيلا وعلامات القلق والريبة والشك قد ارتسمت على وجه أبى العز الذى أغلق الباب وذهب إلى غرفة مكتبه حيث وجد صفاء فى انتظاره وسؤاله :

— خيرا يابابا .. لماذا جاء الضابط ؟ !

— جاء فى طلب يدك ..

ابتسمت ابتسامة خفيفة لكنها تداركت الأمر :

ـ وماذا كان رأى حضرتك ؟ !

ـ الرفض طبعا ..

عبرت سحابة رمادية وجه صفاء المشرق. لاحظ أبو العز ما دار داخلها فسألها :

ـ وانت ؟ ! هل كنت تقبلين ؟ !

ـ إنه شاب زاخر بالحيوية والذكاء .. ركنت أفضل حسم الموضوع بعد تخرجي الذى لم يبق عليه سوى بضعة شهور ..

ـ أنت تعرفين أسلوبي ياصفاء .. إن قطع العرق وتسييح الدماء خير ألف مرة من تمييع الأمور ..

- ٦ -

كانت الأقدام وجفت الألسنة وتجهمت الوجوه . الدفء الذى شعرت به يوم خروجك من السجن لم يكن سوى دفء الشمس التى تمنح الحياة للجميع دون تفرقة : أما قلب المجتمع فمن الحجر الصوان البارد. الكل يتبرأ منك . لكنهم لايعرفون أننى أستطيع الانتقام بل وكشف عوراتهم . إن هذه الأصابع النحيفة الدقيقة لاتستعصى عليها أية خزانة . إنها تستطيع الوصول إلى أدق الأسرار وتعرية الفضائح الكامنة . يا أبناء المجتمع المحترم يامن تقسمون أرزاق الله بين البشر ، سوف أشاركم اللعبة . ولكن بطريقتى . وكل إنسان مسئول عن تصرفاته سواء أكان هذا الإنسان أنا أم أنتم ؟ ! وطالما أن مخالب المجرم ملفوفة فى حرير أبيض نقى فسينحنى الجميع احتراما ليده عندما تمتد بالسلام ، أما إذا كان المجرم فقيرا غير قادر على اخفاء مخالبه القذرة فالويل كل الويل له . ولقد قررت بدورى شراء الحرير لاخفاء المخالب حتى يكون اللعب على المستوى نفسه .

— إلى أين ذهب بك الفكر ؟ !

سأل هانى عبده الذى جلس وحده فى شرفة بيت الهرم محاولا الاستمتاع بشمس العصر : جلس هانى بجواره سائلا سؤالا آخر :

— هل وفقت اليوم ؟ !

— من أين يأتى التوفيق ؟ ! لقد أثبت الأسبوع الماضى أن تفاؤلى لم يكن سوى نتيجة مباشرة وطارئة لخروجى من السجن . أما المجتمع فهو يسير على نفس المنوال ان لم يكن أسوأ .. نفس البرود .. نفس اللا مبالاة .. بل ونفس العداء ..

— والعمل ؟ !

— سنموت جوعا إذا لم نبحث عن طريق جديد للرزق ؟ !

— أو طريق قديم .. قديم جدا ؟ !

— عين الصواب .. لقد كنت محقا منذ البداية ياهانى ..

— ستعود إلى سابق مجدك وعزك ؟ !

— وبدلا من أن يلهث الناس هربا منى .. سأجعلهم يركضون خلفى ..

— الحياة غابة .. البقاء فيها للأقوى والأخبث ..

— وسأبدأ بخالك ؟ !

بهت هانى للقرار المفاجئ لكنه حاول أن يتماسك ويتساءل :

— ولماذا خالى بالذات ؟ !

— لأنه يظن أنه أذكى وأقوى وأنظف خلق الله ؟ !

— وهو كذلك فعلا ..

ـ قد أتفق معك فى الذكاء والقوة . . أما النظافة فأمر مشكوك فيه تماما . .

ـ صحيح أن حياة خالى غامضة . . وأصبح من أغنى أغنياء البلد فى أقل من عشر سنوات . . لكن أحدا لايستطيع أن يمسه من قريب أو بعيد . . إنه شخصية رهيبة . . فلتبعد عن الشر وغن له . .

ـ حاولت الابتعاد عنه منذ خروجى من السجن . . لكنه ـ كما رأيت ـ يصر على التعامل معى . .

ـ فلنبحث عن آخر بدلا من خالى . . وخاصة أن لى معه شخصيا سابقة خطيرة . .

ـ لقد اخترت خالك بالذات لأضيف لذة الانتقام إلى السرقة . . وبذلك لا أكون مجرد لص خزائن بل منتقم أيضاً . .

ـ إنه اختيار خطير ! !

ـ إنه اختيار المصير ! ! المهم هل يعرف خالك عنك شيئا ؟ !

ـ اطمئن تماما . . لايعرف الآن إذا كنت حيا أم ميتا ؟ !

ـ وسكنك ؟ !

ـ كان يظن حتى شهرين مضيا أننى أعيش مع أمى ! !

غابت الشمس وراء الأفق . وتسلل الهواء البارد إلى الأطراف فنهض عبده ومعه هانى ودخلا غرفة النوم التى يبدو أنها لم تعرف النظافة والنظام منذ أن بنى المنزل . لم يسترح عبده للفوضى الضاربة فهبط السلم الحلزونى وخلفه هانى الذى أخرج من الدولاب زجاجة نبيذ ، فتحها وصب منها فى

كوبين على المائدة أمام عبده الذى تجرع أحد الكوبين فى شراهة وتبعه هانى ثم سأل :

— ما أخبار الولد أسامة ؟ !

— منهمك ليل نهار فى الكازينو الذى يعمل على حمايته ..

— لم يسأل عنى حتى الآن ؟ ! قليل الأصل ! !

— سأل كثيرا لكنه لم يستطع المجئ لسهره بالليل ونومه بالنهار ..

— وهل هو سعيد بوظيفة الفتوة ؟ !

— أفضل من أن يموت جوعا ..

— مر عليه وأخبره باعادة تشكيل الشركة ..

— أوامرك يازعيم ..

صب هانى المزيد من النبيذ فى الكوبين وانهمك الاثنان فى الشرب الصامت وفجأة طلب عبده من هانى ورقة وقلم . بحث هانى عنها فى كل مكان وأخيرا وجد ورقة عليها بعض البقع الدهنية فى المطبخ أحضرها مع قلم رصاص نصفه مكسور ثم وضعها فى خجل أمام عبده الذى أمسك القلم متأملا :

— يصلح والسلام .. من قال اننا كتاب أو مؤلفون ؟ !

جلس هانى بجوار عبده ، جلسة التلميذ إلى أستاذه ، وسأل :

— وهل تنوى سرقة خزانة الشركة ؟ !

— وهل يصح أن أسرق خزانة قمت أنت بسرقتها قبلى ؟ ! لذلك قررت سرقة خزانة خالك فى الفيلا ؟ !

— إن خالى لايضع أموالا كثيرة سواء فى خزانة الشركة أو خزانة الفيلا .. لأنه يستغل ثروته فى مشروعات كثيرة !

ـ وإذا لم تكن خزانته المنزلية بهذه الأهمية فلماذا يخفيها خلف لوحة فنية كبيرة ؟!

ـ قال لى ذات مرة إنه يضع اللوحة فوق الخزانة حتى لا تشوه جمال غرفة المكتب ..

دفع عبده بالورقة والقلم صوب يد هانى الممسكة بكوب النبيذ قائلا :

ـ ارسم لى خريطة بالدور الموجود به الخزانة ؟ !

ارتعشت يد هانى فوضع الكوب نصف الفارغ على المائدة وقال :

ـ أرجوك يا عبده .. اعفنى من هذه المهمة .. اننى غير مستريح لها نفسيا ..

ـ انك سوف تنتقم أيضا لأنك أهنت مثلى تماما ..

ـ كيف ؟ !

ـ كيف ؟ ! ترفض صفاء طلبك ليدها ولا تعتبر هذا اهانة وتتساءل كيف ؟ !

ـ آه .. ذكرتنى بشىء أسوأ من هذا .. لقد أخبرتنى الخادمة التى تعمل لدى خالى أن ضابط مباحث القسم الذى تتبعه الفيلا قد تقدم لطلب يدها .. وكانت تتمنى أن يوافق خالى ..

انفجر عبده ضاحكا لأول مرة منذ خروجه من السجن . نظر اليه هانى مذهولا . استمر فى الضحك المتفجر ثم حاول السيطرة على نفسه فخرجت الكلمات متقطعة غير واضحة :

ـ أروع نكتة سمعتها فى حياتى . حضرة الضابط يريد دخول المغارة بعد الاستيلاء على مفتاح قلب ابنة صاحبها ..

– لا أفهم شيئا ؟ !

– ولا تفهم أيضا أنها أغلقت قلبها فى وجهك وفتحته على مصراعيه لحضرة الضابط ..

– أفهم هذا جيدا !

– ولا تريد الانتقام ؟ !

– لقد رفض خالى طلبه ..

– لأنه لا يحتمل وجود ضابط مباحث فى عقر داره ..

– ولم لا ؟ !

– لن أشرح لك .. لأنك لن تصدق .. سأترك الأحداث تشرح لك نيابة عنى . . والآن هيا بنا لمقابلة الولد أسامة قبل أن ينهمك فى عمل الليلة .

نهض عادل مرتديا الجاكته وتبعه هانى دون أن ينبس ببنت شفة : خرجا سويا وكانت نسمات الربيع تهب ممزوجة بالبرد والدفء فى آن واحد : ساد الظلام كل الأشياء فقد غاب القمر فى تلك الليلة . جلس هانى أمام مقعد القيادة وأدار المحرك فى حين جلس عادل الى جواره .

انطلقت العربة والصمت يخيم عليهما لكن عبده قطعه باطلاق صفير جزل لم يتوقف الا عند سماع مزيج من النباح والعويل وارتطام جسم صغير بالعربة التى لم تتوقف . قال هانى بصوت مرتعش دون أن ينظر الى عبده :

– يبدو أن العربة اصطدمت بأحد كلاب الحراسة فى المنطقة ؟

– ما حدث حدث وليس بيدك أن تفعل شيئا !

– لقد تشاءمت ..

ـ او وضعنا فى حساباتنا التشاؤم والتفاؤل فلن نفعل شيئا !

لم يرد هانى واستمرت العربة منطلقة الى أن بلغت شارع الهرم الذى تلألأ بالمصابيح والأضواء ، ثم انحرفت يمينا الى طريق مصر اسكندرية الصحراوى ثم يمينا مرة أخرى الى احدى الطرق الجانبية التى قبع الكازينو فى نهايتها مثل ماسة مشعة . توقفت العربة فى طابور صنعته أربع عربات فاخرة تحمل الاسكندرية . إنها عربات اخوتنا العرب الذين يعشقون دفء مصر ، وكأن بلادهم لا تجود عليهم بالقيظ وليس بالدفء وحده .

هبط هانى وعبده من العربة . دخل هانى الكازينو صوب شباك التذاكر ودار حوار مقتضب بينه وبين العاملة توجه على أثره الى قاعة المسرح وفى أعقابه عبده . كان أسامة يقوم بترتيب بعض الموائد وعندما رأى هانى ترك كل ما فى يده ورحب به معانقا لكنه فغر فاه دهشة عندما لمح عبده واقفا خلف هانى . هجم أسامة بجثته الهائلة ورأسه الضخم محتضنا عبده غير مصدق نفسه :

ـ إنها ليلة من ألف ليلة ..

ـ أوحشتنى يا أسامة ..

ـ اعذرنى يا عبد الورد .. ظروف عملى اقعدتنى عن القيام بالواجب نحوك .

تخلص عبده برقة من ذراعيه وقال :

ـ جئت لأبشرك لا لأعاتبك ..

ـ أيامك كلها ورد يا عبد الورد ..

ـ قل لى أولا .. هل أنت سعيد بعملك هذا ؟ !

ـ الموت ضربا خير من الموت جوعا ؟؟

انفجر الثلاثة فى قهقهة عالية صافية : دخلت راقصة مسرعة وخلفها خادمتها تحمل حقيبة ملابسها : توقفت عند أسامة :

— أسامة .. اذا جاء فهد الليلة .. فقل له إننى مشغولة . عن اذنك ..

انطلقت الراقصة إلى غرفتها وخلفها خادمتها . نظر عبده إلى أسامة الذى قال :

— كما ترى.. وظائف آخر زمن ..

— اذن .. مستعد للإنضمام الينا ؟ !

— يدى على كتفك .. من الآن ..

— نتقابل غداً الساعة الرابعة مساء عند هانى..

— وهو كذلك .. لكنكما الليلة ضيفانى..

— لا وقت للهو يا أسامة .. سلام .. نراك غداً ..

— وهو كذلك

انصرف عبده وهانى ولاتزال البهجة مرتسمة على وجه أسامه .

فى تمام الساعة الرابعة من مساء اليوم التالى دق جرس الباب فقام هانى وفتح الباب الذى دخل منه أسامه بجثته الهائلة وعانق الصديقين وجلس طالبا من هانى بعض الطعام لأنه لم يضع شيئا فى بطنه منذ أن استيقظ . أحضر له هانى بعض الساندويتشات التى هجم عليها وأتى عليها فى دقائق . قال عبده:

— انتبه ياأسامه .. قام اليوم هانى بتحريات مذهلة سوف تفيدنا تماما فى ضربتنا القادمة..

— أنا جاهز..

— سنسطو على خزانة خال هانى..

ارتعشت جفون هانى لكن أسامة قال :

ــ أبوالعز سلمان .. مرة واحدة :: هذا الرجل بحاره عميقة وعلاقاته خطيرة ويمكن أن يقضى علينا تماما لو فشلت الخطة ::

تساءل عبده مندهشا :

ــ وهل قمت أنت بتحريات أيضاً ؟ !

ــ الأخبار تصلنى بلا عناء :: أبو العز له صولات وجولات بين الراقصات .. وله شاليه فى العجمى. شاليه مثل ألف ليلة وليلة :: يقضى فيه كل خميس وجمعة مع واحدة أو اثنتين منهن ::

خرج هانى عن صمته القلق :

ــ كلامك صحيح .. إن خالى اعتاد أن يقضى عطلة نهاية الأسبوع فى الأسكندرية ..

قال عبده :

ــ هذا تأكيد عظيم لتحرياتنا :: والآن أرجو الانتباه تماما :: فلقد قررت تنفيذ الخطة مساء الخميس بعد القادم ..

سأل أسامة :

ــ ولماذا لاتكون فى منتصف الليل ؟ !

ــ المهم متى ستكون الفيلا خالية ؟ ! ثم ان منتصف الليل مثير للشبهات ::

ثم طلب عبده من هانى الادلاء بتفاصيل تحرياته فقال :

ــ عرفت من خادمة صفاء أنها سافرت مع الكلية فى رحلة إلى الأقصر وأسوان : وأنها لن تعود منها قبل الجمعة بعد القادم . وقد قرر خالى منح

الخدم أجازة يومين . حتى البواب سيسافر إلى البدرشين ليزور أمه المريضة التى لم يرها منذ مدة طويلة .. إنها فرصة العمر ..

حسم عبده الأمر بقوله :

— فى اعتقادى أن الساعة العاشرة مساء وقت غير مثير للشبهات فى حالة إذا ما رأى أحد من الجيران ضوء الكشاف الذى سنعمل عليه .

أضاف أسامة :

— لكن لابد من التأكد من كل خطوة منعا للمصائب.

طمأنه عبده بقوله :

— لقد عاينت الموقع بنفسى فاكتشفت وجود كافيتريا تكشف الخارج والداخل الى الفيلا . سأتناول غذائى وعشائى فيها لمدة ثلاثة أيام قبل يوم التنفيذ .

برقت عينا أسامة وقال :

— دعنى أراقب الفيلا معك .. انها ستكون مراقبة لذيذة ..

— ستراقب الفيلا فعلا .. ولكن ستركز على الباب الخلفى من الناحية الأخرى .. هناك دكان لتلميع الأحذية يمكنك التعامل معه للتغطية ..

— وماذا عن دور هانى؟!

— لا أريد أن يظهر هانى فى هذه المرحلة لأنه وجه مألوف لسكان الفيلا والحى .. سيقتصر دور هانى على الارشاد داخل الفيلا يوم التنفيذ .

تنفس هانى الصعداء ونهض وأحضر ثلاثة أكواب فارغة ملأها بالنبيذ وشرب الثلاثة نخب الخطة .

عند ظهر خميس التنفيذ جلس عبده فى مدخل الكافيتريا يتسلى بتناول ساندويتش لحم مشوى لكن عينيه لم تفارقا الباب الخارجى للفيلا . فى تمام الساعة الثالثة والربع خرجت العربة المرسيدس السوداء الفاخرة من الجاراج وقام السائق بتنظيفها وتلميعها . وفى تمام الثالثة والنصف فتح الباب الداخلى وهبط على السلم الرخامى أبوالعز فى كامل رونقه ، فأسرع السائق وفتح باب السيارة ، فدخل منه المليونير وعلى وجهه كل امارات الحيوية والبهجة . أغلق السائق الأسمر الباب وأسرع إلى مقعده فقاد السيارة عبر الباب الخارجى الذى فتحه البواب بسرعة ، وغادرت السيارة الفيلا .

لابد أنها منطلقة كالسهم إلى العجمى يا أبا العز . ستمرح هناك ماشاء لك المرح ، ستقضى ليلة مثيرة . ونحن أيضاً سنقضى ليلة مثيرة نرجو أن تتم بخير ، الغابة التى نعيش فيها لاتترك لك إلا خيارا واحدا من خيارين : إما أن تأكل أو تؤكل .. وفضلت الاختيار الأول .

انقض عبده على بقية الساندويتش بين أصابعه فأتى عليه : ستحتاج إلى كل قوتك وصحتك وأعصابك الليلة : طلب ساندويتش آخر : كل يلهو على طريقته ، وكل يسعى لرزقه بأسلوبه : كان بائع الكافيتريا خلف المائدة يلقى من حين لآخر نظرات متعجبة على هذا الزبون الذى وقع فجأة فى غرام الكافيتريا بحيث يعسكر فيها يوميا من الثالثة إلى العاشرة مساء. لاحظ عبده نظرات البائع لكنه تجاهلها بعدم ارتياح : أنهى وجبته بشرب زجاجة مياه غازية وقام يتسكع فى المنطقة ودار حول الفيلا فرأى أسامة قابعا عند محل تلميع الأحذية فى انتظار دوره ومركزا عينيه على الباب الخلفى للفيلا : فى هذه اللحظة خرجت سيدة مسنة إلى حد ما ومعها شابة وتحمل كل منهما حقيبة صغيرة : قامت السيدة المسنة بغلق الباب الخلفى بسلسلة ضخمة ذات قفل ضخم فتأكد عبده بنفسه أنها مربية صفاء قد قامت باجازتها مع خادمتها . حتى الآن كل معلومات هانى ثبتت صحتها :

أشار عبده لأسامة الذى سرعان ما استأذن من صاحب المحل بحجة شراء شىء والعودة : سار عبده بخطى واسعة وخلفه أسامة الذى أخبره عندما سار بمحاذاته فوق الرصيف أن مراقبة الباب الخلفى لا لزوم لها بعد اغلاقه بالسلسلة وخاصة أنه على وشك الموت جوعا :

ــ اذهب إلى الكافيتريا وتناول ماشئت من الطعام :. أريدك فى أتم صحة وعافية الليلة :. وعليك بالمراقبة من الكافتيريا :. وسأقوم أنا بجولة فى المنطقة حتى حلول الظلام :.

ــ وهو كذلك :.

أسرع أسامة الخطى يسارا ثم انحنى يسارا مرة أخرى إلى أن بلغ الكافتيريا وهناك تربع على أقرب مقعد شاغر : أما عبده فتسكع أمام واجهات

المحلات الزاخرة بكل ماتشتهيه الأنفس : الأنفس المليئة بالأموال طبعا . هذه البذلة تزيد على المئة جنيه : وهذا القميص تعدى الخمسة والعشرين جنيها . وتلك الساعة الذهبية : آه .. إنها أخت الساعة التى كان أبو العز يحلى بها معصمه يوم زاره فى مكتبه . ياه .: إن ثمنها يزيد على الألف جنيه .. صورة أبى العز لاتفارق مخيلة عبده .. شىء طبيعى أن أتذكره فى هذه الليلة الكبيرة . ليلة تصادم الأقدار :: كيف ستنتهى الليلة ؟! هل ستنتهى بالحصول على كل ما فى خزانة أبى العز والخروج به من الفيلا خروج الشعرة من العجين ؟! ابتسم عبده لهذا الخاطر . أم أن أمرنا سينكشف بطريقة أو بأخرى ، وسينتهى بك الحال إلى قسم الشرطة ثم السجن كما حدث لك من قبل ؟! لكن هذه المرة لن تدخل السجن وحدك ، لابد أن يشاركك هانى وأسامة .. اجتاحت موجة من الكآبة وجدان عبده لكنه سرعان ما طردها بمشاهدة الفاتنات المتبخترات والتشبع بالعطور المنبعثة منهن .

آه لجنس النساء .. آه وألف آه .. طحنتك الحياة وأنت فى شرخ شبابك .: لم تعرف الجنس سوى مع بنات الليل .. طريدات المجتمع مثلك تماما .. كانت كمية المرارة أضعاف أضعاف كمية المتعة .: أنظر إلى هذه الحسناء ذات السروال الأبيض الضيق الشفاف .. إنها تهبط من عربتها التى تركتها وسط الطريق تقريبا :. وشرطى المرور بدلا من أن يحرر لها مخالفة ، ترك العربة وأسرع خلفها يلتهم مفاتنها بعينيه وشاربه . هذه الحسناء الفاتنة الثرية فى كل شىء ، نجوم الظهر أقرب اليك منها . إن البشر يعيشون فى مدينة واحدة ظاهريا ، لكنهم فى الحقيقة يعيشون فى كواكب منفصلة تماما عن بعضها بعضا . وإذا كانت أقدار الناس تقاس بالأبراج فلابد أن هذه الحسناء قد هبطت من برج الحظ فى حين أتيت أنت من برج النحس :

ابتلع أحد المحلات الفاخرة الحسناء . أدار عبده رأسه بحثا عن حسناء أخرى : وما أكثرهن : متابعتهن خير وسيلة لطرد المخاوف والهواجس فى ليلة مصرية كهذه : هذه المرة لن أستجدى أحدا .: سأمد يدى وآخذ ما أشاء . الكل يأخذون ولا أحد يمنح . وعندما أحصل على المال سأحصل على كل شيء .. سأشترى البشر فأنا أعرف أن لكل إنسان سعرا مهما ارتفع :: توقف فورا عن هذه الخواطر والا فعلت مثلما فعلت صاحبة قدر العسل من قبل .

مع حلول الظلام أغلقت المحلات أبوابها ، وتناقص عدد المارة فى الشارع . وأحس عبده بالوحشة والعزلة . كان الزحام والضجيج أفضل من هذا السكون الرهيب . أسرع الخطى نحو الكافتيريا حيث وجد أسامة لايزال يتناول بعض الساندويتشات . تظاهر عبده بأنه قابله صدفة وحياه وجلس أمامه صامتا . ظهرت علامات الشبع على وجه أسامة مع آخر ساندويتش إلتهمه .

نهض الاثنان وغادرا المكان صامتين. فى الخارج قال أسامة :

– لقد غادر البواب الفيلا بعد أن أغلق الباب الحديدى بسلسلة غليظة ذات قفل ضخم .

– لاتخف .. لايوجد قفل يستطيع أن يستعصى على .. المهم أن تكون أنت دقيقا فى مراقبة الطريق أثناء التنفيذ ..

– متى سيأتى هانى بالعربة ؟!

– فى تمام التاسعة والنصف كى نكون أمام الخزانة فى تمام العاشرة ..

– لقد قل عدد المارة فى الشارع بشكل ملحوظ ..

– كل شيء محسوب يا أسامة .. هيا بنا .

استأنف الاثنان مراقبتهما للفيلا بالمرور فى الشوارع المحيطة بها . وتأكد لديهما أن الفيلا ملكهما فى تلك الليلة، بل والشوارع التى أوشكت أن تخلو من المارة . شيء مثير أن تضرب ضربتك فى الزمان والمكان اللذين تحددهما باحكام. جريمة الليلة ستعلم الناس أن ما حدث فى حتى طوال الأسبوع الماضى لم يكن جريمة أقل منها بشاعة .

فى تمام الساعة التاسعة والنصف توقف هانى بعربته عند الناصية المواجهة للفيلا وتحت شجرة عجوز كثيفة الفروع والأوراق . نظر حوله فى حيرة فرأى عبده وأسامه قادمين من الجهة المقابلة. فى تلك اللحظة مر أحد عساكر الدورية فزادت دقات قلب هانى ، وتظاهر عبده وأسامه بوقوفهما على الرصيف فى انتظار شخص ما . اختفى الجندى فى شارع جانبى فأسرع عبده إلى هانى الذى أخرج من نافذة العربة حقيبة صغيرة للغاية أخذها عبده مسرعا وتبعه هانى فى حين دخل أسامة العربة وجلس فى مقعد القيادة .

أسرع عبده وهانى حتى وصلا إلى الباب الحديدى للفيلا. أخرج عبده من جيبه قطعة من السلك عالج بها القفل ففتحه فى لحظات ، ثم صعد عبده السلم الرخامى وخلفه هانى الذى كان يتلفت حوله . أخرج عبده من الحقيبة الصغيرة مجموعة من المفاتيح التى ومضت فى الظلام ، وكان المفتاح الرابع الذى عالج به الباب الحديدى الزجاجى للفيلا قد فتحه فى هدوء مثير .

دخل الاثنان الفيلا وأغلق عبده الباب بالأكرة فقط . أخرج عبده الكشاف الصغير من الحقيبة وسار الاثنان فى خفة على ضوءه. حتى بلغا غرفة المكتب التى تقع فى نهاية الممر الذى يبدأ بباب الفيلا : أمسك هانى بيد عبده القابضة على الكشاف ووجه ضوءه إلى لوحة ضخمة معلقة فى صدر الغرفة :

وقف عبده بخفة فوق كرسى المكتب وأنزل اللوحة على المكتب فى حين أمسك هانى الكشاف له فبدت الخزانة ضخمة مهيبة. ارتدى عبده قفازاً أبيض وبدأ فى معالجة الأرقام السرية للخزانة ولكنها لم ترضخ بسهولة .

برغم برودة الليلة واتساع الفيلا من الداخل تصبب العرق غزيرا على جبين عبده . وكان هانى يمسح له العرق بمنديله من حين لآخر . دقات الساعة الكبيرة فى الممر تثير الرهبة والخوف داخل هانى على وجه الخصوص . عين على يد عبده والأخرى تتسلل من حين لآخر لباب الفيلا. همس عبده فى صوت كالرعد :

— لم يحدث مثل هذا فى حياتى من قبل .. إنها خزانة من طراز حديث ..

— إذا كانت مستعصية فيمكن الغاء العملية كلها ..

— بعد كل هذا التخطيط ؟!

استأنف عبده محاولاته فى إدارة قرصى القفل. ارتعشت أصابعه لأول مرة فأسرع بادخال سلك معقوف فى ثقب القرصين وأدار مزلاج الخزانة وأخيرا فتحت :

— ألم أقل لك ؟! لاتستعصى على خزانة .. حتى لو كانت خزانة خالك

ابتسم هانى مسلطا الكشاف على داخل الخزانة. لكن ملامح الاحباط رتسمت على وجه عبده عندما وجد رزمتين هزيلتين من الأوراق المالية من فئة العشرين والعشرة ، وبعض الأوراق المتناثرة . جمعها عبده يائسا فى حقيبته الصغيرة وهانى يقول :

— ألم أقل لك إنه لايحتفظ بأمواله فى خزانات ؟!

— المكتوب على الجبين ..

أمسك عبده بالكشاف وأعاد مسح الخزانة من الداخل فوجد ورقة بيضاء حاول قراءتها لكن ضوء الكشاف لم يسعفه فوضعها فى جيبه فى نفس اللحظة التى انفتح فيها باب الفيلا ودخل أسامة مسرعا فسلط عبده عليه الكشاف صارخا :

— من ؟!

— أنا أسامة ياعبده ..

قالها أسامة لاهثا فى حين أوشك هانى على السقوط مغشيا عليه. أضاف قوله اللاهث :

— وقف تاكسى أمام الفيلا به فتاتان لاتزالان به تتحدثان. وأعتقد أن احداهما ستدخل الفيلا ..

تدخل هانى متسرعا :

— لايوجد فى الفيلا من يستخدم التاكسى .. خالى يمتلك ثلاث سيارات بسائقيها .

أكد عبده :

— لابد أن التاكسى وقف أمام العنوان الخطأ ..

فى نفس اللحظة فوجىء الثلاثة بمن يضىء نور الممر وتجرى بخطوات حادة مسرعة صوب المكتب. كانت صفاء . شاهدت الثلاثة على ضوء نور الممر بعد أطفأ عبده الكشاف . صرخت لهانى :

— ماذا تفعل هنا مع هؤلاء ؟ !

حاولت الصراخ مرة أخرى لكن المفاجأة أفقدتها الوعى وسقطت مغشيا عليها .

قال هانى وعيناه لاتستقران على مكان :

— آخر ماكنا نتوقعه .. ماذا نفعل الآن وقد تعرفت على ؟!

نظر هانى إلى جسدها الجميل الملقى على الأرض أمام المكتب ثم صرخ :

— ماذا نفعل ياعبده ؟!

أغلق عبده الخزانة فى هدوء دون أن يدير القرص وأعاد اللوحة إلى مكانها فوق الخزانة . وربت على ظهر هانى وقال :

— إهدأ والا انتهى أمرنا كلنا. اذهب واحضر عربتك أمام باب الفيلا الداخلى .. لابد أن تدخل من الباب الحديدى ..

— ماذا تنوى ؟!

— ستعرف حالا .. اذهب .. اذهب ..

خرج هانى لاهثا إلى حيث عربته التى قادها داخل الباب الحديدى ووقف حيث أمره عبده تماما . فى الداخل أمر عبده أسامة بمساعدته فى حمل صفاء إلى حيث العربة . رفع كل منهما ذراعها على كتفه وأمسكا بوسطها بحيث بدت محمولة بينهما.شعرا بثقل جسدها وبرودته لكنهما تغلبا على الاجهاد وسارا بها إلى الباب الزجاجى الذى أغلقه عبده بهدوء وهبطا على السلم الرخامى فأسرع هانى وفتح الباب الخلفى إلى حيث أدخل عبده صفاء وجلس بجوارها ، وجلس أسامة بجوار هانى الذى سأل :

— الى أين ؟ !

أجاب عبده :

— الى شقتك ..

— وماذا سنفعل بصفاء ؟ !

— إنها رهينتنا طالما لم نحصل على هدفنا ..

تدخل أسامة :

— ليس هذا وقت النقاش .. ننطلق من هنا بسلام أولا ..

أجاب عبده :

— عندك حق يا أسامة .. هيا بنا ..

أدار هانى المحرك بيد مرتعشة وخرجت العربة من الفيلا . عندئذ أمره عبده بالتوقف وخرج منها مسرعا حيث أعاد غلق الباب الحديدى بالسلسلة والقفل . وعاد الى مكانه فى العربة التى انطلقت فى طريقها الى الهرم .

فى العربة قال هانى محدثا نفسه بصوت عال :

— كنت خائفا من مصيبة واحدة .. جاءتنا اثنتان ..

قال عبده الذى وضع رأس صفاء على كتفه كالعشاق :

— كفاك ندبا مثل العجائز .. ما وقع وقع .. ويجب أن نفكر فى حل ..

— كانت من المفروض أن تعود من أسوان غدا ..

— كل هذا الكلام لا لزوم له ..

— هل تعرف عقوبة خطف الأنثى ؟ !

— أعرف القانون مثلك تماما .. وكل ما نحتاجه الآن فرصة للتفكير المتأنى بهدف الاستفادة بقدر الامكان مما حدث ..

أحس عبده بدفء أنفاس صفاء فابتسم ابتسامة مريرة .



- ٨ -

بوصولهم شقة الهرم قام عبده بعمل الاسعافات الأولية لصفاء واضعا على أنفها زجاجة عطر نفاذ. بدأت تتململ فى مكانها وفتحت عينها الجميلتين الزائغتين وتساءلت :

— أين انا ؟ !

أسرع هانى اليها وأمسك بيدها بين يديه :

— أنت هنا .. ضيفة عزيزة مكرمة : ومع ابن عمتك الذى يعبدك ..

نظرت صفاء الى هانى نظرات لم تع ما سمعت : ثم دققت البصر حولها فاذ بها تصرخ صرخة عالية هجم هانى على أثرها واضعا يده بكل عنف على فمها ، لكن قوتها ظهرت عندما عضت يده ورفسته بحذائها صارخة :

— يا مجرم .. خطفتنى بالاكراه .. كنت أظن أنك لص فقط .. لكنك ستدفع الثمن غاليا ..

وقف عبده أمام صفاء وقال حاسما الموضوع :

ـ خرج الموضوع من أيدينا .. لماذا جئت قبل ميعادك؟ ! لماذا وضعك القدر فى طريقنا ؟ !

قالت صفاء :

ـ اذا أردت أن تصلح كل شىء .. أتركنى أعود الى منزلى ..

ـ ستعودين .. لكن ليس قبل أن يدفع أبوك الفدية ..

ـ اذن فأنا رهينة مخطوفة ؟ !

ـ التسميات لا تغير من الواقع شيئا .. انت هنا فى الحفظ والصون ولن يمسك أحد بسوء ..

ـ أهناك سوء أفظع مما حدث لى ؟ !

ـ أليست لك رغبة فى تناول شىء من الطعام ؟ !

ـ رغبتى الوحيدة .. عودتى للمنزل ..

أشعل عبده سيجارة وأخذ نفسا عميقا وقال :

ـ سأتصل بأبيك غدا بمجرد عودته من العجمى ..

ارتسمت معالم الدهشة العميقة على وجه صفاء .. انه يعلم كل تحركات أسرتها . أثارت صفاء اعجاب عبده بشخصيتها القوية وشجاعتها الفائقة وجمالها الجذاب . جلس هانى إلى جوارها كالكلب حارسا لها . جلس أسامة إلى المائدة يلتهم بقايا بعض الأطعمة عليها . أخرج عبده محتويات الحقيبة الصغيرة وجعل يعد الأوراق المالية فوجد أنها عبارة عن ألفين ومائتين من الجنيهات . نظر إلى أسامة ثم إلى هانى وقال :

ـ خرجنا من المولد بلا حمص ..

لكن أسامة أشار إلى صفاء وقال :

ــ لايزال الحمص كله معنا ..

قالت صفاء بمنتهى الاشمئزاز :

ــ آه يامجرم ..

لم يرد أسامة . وتذكر عبده الورقة التى أخذها من الخزانة فأخرجها من جيبه وقرأ :

ــ « إيصال دفع .. تسلمت أنا الموقع أدناه مبلغ خمسمائة ألف جنيه من السيد أبوالعز سلمان عربون تعبئة وتغليف زجاجات ماء الحياة على أن يتم تسليمها بعد شهرين من تاريخه ، وتدفع غرامة خمسة آلاف جنيه مقابل كل شهر تأخير ..

المقر بما فيه

« فتوح الديب »

ــ آه .. فتوح الديب مرة أخرى ! !

نظر عبده إلى هانى نظرات ذات مغزى : وسأله :

ــ هل تعرف شيئا آخر عن فتوح الديب ؟ !

هز هانى رأسه بالنفى .. فقال عبده كمن يحدث نفسه :

ــ هذا الاسم ليس غريبا على .. إنى متأكد أننى سمعت عنه من قبل .. أشم روائح كثيرة خلف هذا الإيصال .. وأنت ياآنسة صفاء.. ألا تعرفين شيئا عن هذا الفتوح الديب ؟ !

أشاحت صفاء بوجهها عنه ولم ترد .

برقت عينا عبده وقال مبتهجا :

— تذكرت :: سمعت من مصطفى صقر في السجن باسم فتوح الديب :: لكنني لم أستفسر عنه حينذاك لأنه لم يكن يهمني :: غداً صباحا سأذهب إلى مصطفى صقر :. فأنا لحسن الحظ أعرف عنوانه في بولاق الدكرور .. إذ منحه لى قبل الافراج عنه .. ولن أتصل بأبي العز بيه قبل أن أعرف حكاية فتوح الديب ..

تساءل هاني :

— وهل ستتركنا وحدنا معها ؟!

— لاتخف .. لن تأكلك ::

ثم أشار عبده لصفاء وقال :

— اصعدى إلى غرفة النوم ولاتخشى شيئا .: سأغلق عليك الباب ولن يدخل أحد :. انه وعد مني ..

قالت صفاء ونظراتها مشحونة بالاحتقار :

— لم أكن أعرف أن للصوص والمجرمين وعودا .:

— سامحك الله .. لك العذر .. والآن اصعدى كما قلت لك :: واياك أن تحاولى الهرب أو لفت الأنظار من الأبواب أو النوافذ :: حافظى على حياتك وساعدينا على الحفاظ عليها .:

أثارت نظرات عبده الرعب داخل صفاء فنهضت من مكانها في صمت وصعدت السلم الحلزوني وخلفها هاني. أغلقت الباب خلفها في وجه هاني الذي أغلقه بدوره بالمفتاح وجلس على كرسي بجواره :

استرخى عبده على كنبة بجوار المائدة في حين صعد أسامة إلى غرفة النوم المجاورة لغرفة صفاء حيث نام كالقتيل .

تركزت كل أفكار عبده فى فتوح الديب هذا : ماذا يفعل ؟! وما حقيقة علاقته بأبى العز ؟! إنه خيط يمنحه من القوة مايجعله يشعر أنه يقف على قدم المساواة مع أبى العز نفسه . لم يغمض لعبده جفن فى تلك الليلة إلا ليستيقظ مرة أخرى فى لمح البصر . إمتزجت الأحلام والصور بالأفكار والخواطر : صورة أبى العز . صوته . صفاء وجمالها ذو البهاء . هانى ونظراته المترددة .. حتى فتوح الديب حلم به عبده دون أن يراه فى الحقيقة ..

مع أول شعاع للفجر نهض عبده مسرعا ورش على وجهه بعض الماء والكولونيا . صعد السلم الحلزونى فوجد هانى جالسا على كرسيه يغالب النعاس فأيقظه ثم أيقظ أسامة فى الغرفةالمجاورة وأخبرهما بخروجه لزيارة مصطفى صقر لمعرفة ما يمكن معرفته عن فتوح الديب . ورفض عبده أن يستقل عربة هانى لأنه من الممكن أن يكون مصطفى صقر تحت الرقابة ، وخرج عبده .

عاد أسامة إلى نومه وشخيره فى الغرفة لكن النعاس لم يعاود هانى الذى أحس بالقلق والتوتر والاثارة بخروج عبده ووجود صفاء معه. نظر من ثقب الباب فوجدها وقد ألقت نفسها فوق السرير فى حين برز نصف ساقها المرمرى من تحت الغطاء : كان منظرا جميلا لم يكن هانى ليراه ولا فى المنام . لم يدر بنفسه إلا وهو يدير المفتاح فى الثقب ويفتح الباب فى حرص شديد لكن صرير الباب جعل صفاء تنتفض جالسة فى السرير كالقطة المتوحشة وهى تغطى ساقها :

– ماذا أدخلك هنا ؟!

– صباح الخير ..

– من أين سيأتى الخير ؟!

— سأعد لك الافطار ::

— لن آكل شيئا من يدك ::

— اكرهيني كما تشائين :. لكن لابد من الطعام :: طالما أنت هنا فأنا مسئول عنك :.

— أين صديقك عبده ؟!

— لماذا تسألين ؟! خرج منذ الصباح الباكر :: عن اذنك .:

هبط هاني السلم الحلزوني وذهب إلى المطبخ. نهضت صفاء من سريرها ونظرت في المرآة المقابلة فهالتها الهالات السوداء حول عينيها، وشعرها الذي فقد كل هندام له . سوت شعرها بيدها وهبطت السلم فشمت رائحة بيض يقلى . كان هاني في المطبخ منهمكا في تجهيز الافطار لها . دخلت المطبخ وعلى وجهها شبه ابتسامة رآها هاني فرحب بها وجهز لها مقعدا لتجلس عليه وتقول :

— هل ترضى ياهاني أن يحدث ما يحدث لابنة خالتك وعلى يديك ؟!

— لم تكوني في خطتنا على الاطلاق .:

— أنا أعلم ضيقك مني منذ أن رفضت خطبتك لي ؟! لكن ثق أنني لن أفكر في الزواج إلا بعد التخرج ::

— لاتبيعي لي وهم احتمال زواجي منك بعد ما حدث ؟!

— برغم كل شيء فأنت ابن خالي : أما الآخران فليس لي بهما شأن ::

— وماذا تريدين الآن ؟!

— أريد العودة إلى منزلي ::

— تريدين مني خيانة زميلي ::

– إنك الآن لص ومختطف .. فهل يضيرك أن تضيف الحيتنا إلى ألقابك ؟

– سامحك الله .. كلامك جارح مثل خالى تماما ..

– إذا لم تساعدنى على الهرب .. سأنتحر .. وسأجعل منكم قتلة أيضاً ..

– لاداعى لتصعيد المواقف .. لعل كل شىء ينتهى بخير ..

خرج هانى حاملا صينية عليها بيض مقلى وجبن أبيض وخبز وشاى ، وضعها على المائدة وخلفه صفاء التى جلست إلى المائدة وبجوارها هانى . ابتلعت قطعة جبن وخلفها رشفة شاى وسألت :

– أين يقع هذا البيت ؟!

– فى منطقة ما بين الجيزة والفيوم ..

– هل هو ملك عبده ؟!

– انى استأجره مفروشا ..

– أريد أن أشم الهواء النقى من احدى النوافذ ..

– ممنوع ..

– انى أكاد أختنق ..

– فلننتظر عودة عبده ليقرر ..

– وأنت .. لا رأى لك ؟!

– لابد من صاحب رأى أخير ..

– فلتكن أنت صاحب هذا الرأى الأخير ..

– يبدو أننى تورطت مثلك تماما فى هذه المصيبة ..

– لازلت قادرا على الخروج منها ..

– عبده لن يرحمنى هذه المرة .

– وهل رحمك فى مرة سابقة ؟!

– دخل السجن وكان يمكن أن يجرنى مع أسامة ..

– يعنى لا أمل فى الخروج من هنا ؟!

– أنت لا تأكلين ..

– لن آكل إلا فى بيتنا .

بلغ عبده حى بولاق الدكرور وبدأ فى البحث عن زميل السجن مصطفى صقر : غاصت أقدامه فى الأوحال وأكوام القاذورات بحثا عن زقاق الدكرورى : وفى النهاية دله طفل لايزيد على الخامسة من عمره إلى العنوان ، طفل ضاعت ملامحه تحت طبقات متراكمةمن الأتربة والذباب ، لكن عينيه لاتزالان تلمعان . أخذ الطفل عبده من يده إلى باب منزل عم مصطفى صقر ونادى عليه : باب المنزل فى ضيقه وتهالكه يشبه باب القبر : الظلام يمسك بكل شىء داخله برغم أن الساعة كانت الحادية عشرة صباحا :

سمع عبده صوت مصطفى صقر الذى يعرفه جيدا ينادى :

- من ؟!

- أنا عبده عفا الله ياعم صقر ::

- عبده عفا الله :: ألف أهلا وسهلا :: تفضل ..

دخل عبده فى الظلام وانتظر قليلا حتى تعتاد عيناه عليه . بدأ فى تبين ملامح سلم خشبى طينى ملتصق بالجدار . صعد السلم الذى وجد فى نهايته مصطفى صقر الذى عانقه ودخل به غرفة ذات نافذة تطل على الزقاق والتراب والذباب والروائح العفنة :

– خطوة عزيزة ياعبده .. متى خرجت ؟!

– منذ أسبوع ..

– ألف مبروك ..

– الله يبارك فيك ..

– قهوة أو شاى ؟!

– لن أثقل عليك كثيرا .. جئت للسلام والتحية والسؤال عن فتوح الديب الذى سبق أن ذكرت اسمه أمامى فى السجن ..

– لماذا تسأل عن هذا الثعبان السام الخطير ؟! إياك أن تعمل معه لو طلب منك ذلك .. إنه مجرم دولى والشرطة تطارده فى كل بلد يذهب إليه .

– لهذه الدرجة !!

– لم يترك شيئا إلا وقام بتزويره .. الأوراق المالية والعملات الأجنبية والشهادات الحكومية .. والآن يعمل فى بيروت فى غش الأدوية وتزويرها . بعد خروجه من السجن انتهز فرصة الحرب الأهلية فى لبنان وأقام مصنعا لغش الأدوية على مستوى دولى .

– انه بهذا يتاجر فى أرواح الناس ..

– اياك والعمل معه ؟!

– لقد طلب منى صديق أن أتحرى له عنه .. هذا كل ما فى الأمر ..

— وهل وجدت عملا ؟!

— لازلت أبحث ..

— كان الله فى عونك .. وأنا فى خدمتك .. فقد حصلت من المحافظة على كشك لبيع الحلوى والسجائر والمياه الغازية ..

— تستأهل كل خير ياعم صقر .. أستأذن ..

نهض عبده ونهض معه صقر قائلا :

— لابد أن تتغدى معنا اليوم ..

— مرة أخرى .. أنا فى عجلة من أمرى اليوم ..

عانق عبده صقرا وهبط السلم وعندما خرج إلى ضوء الشارع لم يسمع ضجته ولم يشم عفنه ولم يشعر بالأتربة المنبعثة من كل ركن . ملأت صورة فتوح الديب مخيلة عبده برغم أنه لم يسبق له أن رآه . آه يا أبا العز ياسلطان يأمير ياابن الأمراء .. تتعامل مع مجرمين دوليين وتخرج على الناس فى عباءة أمير الشرف والأصل والحسب والنسب والانفتاح . ترفض التعامل مع المجرمين المحليين الصغار أمثالنا . تصر على أن يكون كل شىء مستوردا .. حتى الاجرام .. تستورد ماء الحياة أم ماء الموت؟! إننا نهدد الناس فى أموالهم التى يمكن تعويضها .. أما أنت يا أبا العز فتهدد الناس فى أرواحهم . تبيع الموت لهم بيادين مختفيين فى قفاز أبيض حريرى ناعم الملمس . ولاتجد سوى التقدير والاحترام بل والاعجاب . أما أنا لو سرقت جنيها واحدا أسد به رمق الجوع فالسجن فى انتظارى فاتحا ذراعيه .. سأتعامل معك معاملة الند للند . فنحن أولاد كار واحد وان اختلفت أقدارنا .

أما أنت ياصفاء فكفاك عنجهية فارغة . تنظرين الينا من عل كما لو كنت ملاكا يتعامل مع شياطين .. لكننى سأعرفك حقيقة أبيك . أما أنت ياهانى

فلم تشذ عن تقاليد العائلة الكريمة . لكنك فشلت فى تكرار أمجاده لأنك لاتملك عبقريته الاجرامية . أما أمتع ما فى الموضوع كله فانه لاخوف من الشرطة مع أبى العز . فكلانا يخاف التعامل مع الشرطة ، بل إن خوف أبى العز يتضاعف لأنه يملك مايخاف عليه من الضياع . الآن أدركت فقط لماذا لم يبلغ الشرطة عن سرقة هانى لخزانة الشركة ؟! إنها معركة مثيرة وممتعة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان . سأغزوك فى عقر دارك ، فاذا قبلت التعاون على قدم المساواة كان بها ، وإذا أخذتك العزة بالاثم فسندخل جميعاً السجن باذن الله بعد أن كان قاصرا على أمثالى وأمثال عم صقر .

لم يتوقف سيل الخواطر المتدفق داخل عبده إلا عندما بلغ أسماعه ضجيج موقف الأتوبيسات فى بولاق الدكرور . تحسس المحفظة التى تحتوى الإيصال العتيد فاطمأن لوجودها فى الجيب الداخلى للمعطف . أطلق صفيرا جزلا وأسرع الخطى تجاه الأتوبيسات :

— ١٠ —

مع حلول ظلام اليوم التالى توقفت العربة المرسيدس السوداء داخل حديقة الفيلا وهبط منها أبو العز ثم صعد السلم الرخامى فى خفة شباب الثلاثين . دلف من الباب منادياً على صفاء لكن مربيتها أسرعت إليه فسألها :

— هل عادت صفاء من الرحلة ؟

— نعم .. عادت .. لكنى لم أرها بعد ..

— وكيف عرفت أنها عادت ؟!

— تركت حقيبتها الكبيرة فى الممر خلف باب الخروج ..

— وأين يمكن أن تكون قد ذهبت ؟! لقد عادت من سفر يوم كامل بالقطار وليس لها سوى أن تستحم وتستريح .. قلبى غير مطمئن .

— الغائب حجته معه .. ربما تكون قد ذهبت إلى احدى زميلاتها ..

بدأ أبو العز كمن تذكر شيئاً : أسرع إلى التليفون وأدار القرص وجاء صوت رقيق على الطرف الآخر :

— ألو..

— الآنسة سلوى موجودة ..

— أنا ياأفندم .. من المتحدث؟!

— أنا أبو العز .. والد صفاء ..

— أهلا وسهلا ياأونكل .. لعل صفاء تكون قد استراحت منذ وصولنا القاهرة أمس ..

— هل وصلتم أمس ؟!

— نعم .. كان برنامج الرحلة قد انتهى بالفعل .. ووجد مشرف الرحلة عربة خالية فى القطار الذى يغادر أسوان مساء الأربعاء . فلم يجد مايدعونا إلى البيات فى أسوان وبذلك اختصرنا من الرحلة يوما .. لكن لماذا تسأل ياأونكل وكل هذه المعلومات عند صفاء ؟!

— لم أر صفاء حتى الآن لأننى عدت توا من الأسكندرية .. ويبدو أنها ذهبت لتزور عمتها .. شكرا .. مع السلامة ..

وضع أبو العز السماعة فى غرفة المكتب والقلق ينهشه من كل جانب . ظل يذرع الغرفة جيئة وذهابا . قلبه يقول له إن شيئا وقع فى غيابه . وعندما تدخل مربية صفاء الغرفة وترى قلقه تقترح عليه ابلاغ الشرطة على سبيل الاحتياط فيثور ضدها ثورة عارمة تصيب المرأة بالذهول فتجد نفسها خارج الغرفة لاتعرف إذا كانت خرجت من تلقاء نفسها أم أنه طردها ؟!

فى حركته القلقة فى غرفة المكتب يلحظ أبو العز مفتاحا نحاسيا صغيرا على طرف المكتب فيلتقطه ويتأكد أنه ليس من مجموعته . ترتفع عيناه تلقائيا إلى اللوحة التى تغطى الخزانة فيجدها غير مستوية عليها فيسرع برفعها

ويمسك بمزلاج الخزانة فتنفتح تلقائيا فى يده : يقفز فوق كرسى المكتب. فيكتشف الخزانة وقد أصبحت خاوية تماما : ظل يمسحها بيده من الداخل مرارا وتكرارا بلا جدوى .

انهار أبو العز على مكتبه لكنه سرعان ما تماسك وأدار قرص التليفون. قائلا :

— أهلا أم هانى .. أنا أبو العز .. متى رأيت هانى آخر مرة ؟

جاء الصوت الضعيف على الطرف الآخر :

— لم أره منذ شهور .. لقد تبرأت منه ومن اجرامه .. لماذا تسأل عنه؟! هل حدث شيء ؟!

— لا .. لم يحدث شيء .. كنت أريده فى مهمة لى !

— لا أعرف ولا أريد أن أعرف عنه شيئا .

— شكرا .. مع السلامة ..

وضع أبو العز السماعة وسرعان ما أدار القرص مرة أخرى :

— أيوه ياسماحة .. أريدك حالا مع حماده وجميل .. فى انتظاركم فى البيت ..

وضع أبو العز السماعة وضرب جرس مكتبه بجنون فجاءت مربية صفاء بسرعة لاهثة فأمرها باحضار الشغالة والطباخ والبواب فورا إلى غرفة المكتب. فى لحظات اصطف الأربعة أمامه والدهشة والتوتر يأخذان منهم كل مأخذ : نظر اليهم أبو العز والشرر يتطاير من عينيه . سأل البواب :

— متى أتيت اليوم يامصطفى ؟!

— بعد الساعة الرابعة مساء ..

– هل كنت أول من وصل إلى الفيلا ؟!

– نعم ..

– ألم تلاحظ شيئا غير عادى ؟!

– كل شيء كان عاديا .. حصل شيء لاقدر الله ؟!

– لم يحدث شيء .. ومتى جاء عبدالرحيم ؟!

رد الطباخ :

– الساعة الخامسة مساء .. فى نفس الوقت الذى وصلت فيه فاطمة الشغالة وحنيفة المربية ..

نظر أبوالعز إلى الجميع وقال :

– لا أحد يغادر الفيلا بدون اذنى .. تفضلوا .. كل واحد إلى عمله ..

انصرفوا جميعا وهم فى ذهول تام ، ينظرون إلى بعضهم بعضا دون فهم أو استيعاب فتأكد أبوالعز أنهم لايدرون شيئا عما وقع .. عاد أبوالعز يذرع الغرفة جيئة وذهابا كالأسد فى القفص .. مرت اللحظات كالساعات عندما دق جرس الباب الموسيقى فأسرعت المربية وفتحته ودخل سماحه وحماده وجميل . ساروا إلى غرفة المكتب حيث أمر أبوالعز سماحه بغلق الباب خلفه .. وفى صمت الغرفة الرهيب شعر الثلاثة أن الأمر جد خطير .

– تفضلوا .. أجلسوا ..

قال الثلاثة بلسان واحد :

– ليس قبل أن تجلس سيادتك ..

صرخ فيهم :

- اجلسوا ..

فجلسوا وأبوالعز لايزال يذرع الغرفة جيئة وذهابا :

- طلبتكم فى موضوع فى منتهى الخطورة والسرية . هناك من سرق الخزانة واختطف ابنتى صفاء ..

بهت الثلاثة لكن سماحة تماسك وتساءل :

- هل هذه حقائق أم تخمينات سيادتك ؟!

- تخمينات أقرب إلى الحقائق. تصورى أن صفاء وصلت الفيلا أثناء وجود العصابة فاختطفتها حتى تأمن شرها وفى الوقت نفسه طلبا للفدية لأن ما بالخزانة لم يكن ليشبع العصابة ..

سأل حمادة :

- وهل هناك خيط يمكن البدء به ؟!

- أشم فى الموضوع رائحة هانى ابن أختى .. إن من دخل الفيلا كان خبيرا بخفاياها ..

تساءل جميل :

- هل يمكن ابلاغ الشرطة ؟!

قال أبو العز :

- سؤال غبى ياجميل .. هل يمكن اثارة الضجة عند الشرطة وبالتالى فى الصحافة وأنا مرشح لعضوية مجلس الشعب ؟! وبالمناسبة ماذا فعلت فى مشروع تقسيم أراضى أبى الهول ؟!

- الرجل لايريد أقل من مليون جنيه ونصف ..

— وأين جبروتك يامرعب ؟!

— فى خدمة السيادة ..

— المهم الآن ياسماحة أنت وحماده وجميل .: أريد تحريات سريعة بخصوص الخزانة وبخصوص صفاء..فى هدوء وسرية تامة بعيدا عن الشرطة والصحافة .

سأل سماحة :

— هل كان بالخزانة مبلغ كبير ؟!

— ألف وماتئتان .: لكن المشكلة أن إيصالا خطيرا من فتوح الديب كان فى الخزانة ولم أجده . أرجو ألا يكون قد أثار اهتمام اللص .: وأن يكون قد تخلص منه ..

سأل حماده :

— إذن .. نبدأ تحرياتنا بهانى ..

— تمام ..

— لكننا لانعرف عنه شيئا الآن ..

— ستعرفون .: وحالا .. هذه هى تعليماتى ..

ينظر الثلاثة إلى بعضهم بعضا نظرات حائرة. ينهضون استعداد للتنفيذ لكن جرس التليفون يدق فيتوقفون ويرفع أبوالعز السماعة فى لمح البصر :

— آلو .: من ؟! نعم .. أنا أبوالعز .. من يتكلم ؟! عبده عفاالله ... .. تريد مقابلتى ؟! بخصوص ؟! نعم ؟ بخصوص صفاء.. أنا تحت أمرك فى كل ماتطلبه .. إطمئن .: أنا لا أتعامل مع الشرطة وأستطيع أن أدبر أمورى بنفسى : بعد عشر دقائق .: فى انتظارك .: مع السلامة .

وضع أبو العز السماعة قائلا للتماثيل الثلاثة الواقفة :

ــ يبدو أن المختطف يريد التفاوض : لكن هل يملك من الجرأة ما سيجعله يأتى إلى هنا بقدميه ؟! أم أن هذه مكالمة مزيفة بهدف تضييع الوقت ؟!

قال سماحة :

ــ عشر دقائق ليست تضييعا للوقت .: وربما كان المختطف متأكدا تماما أن شيئا لن يمسه هنا .:

ــ وخاصة أن صفاء رهينته !

ــ بالضبط .:

ــ أريد منكم الاختفاء فى الغرفة المجاورة حتى تنتهى هذه المقابلة المثيرة ؛ ربما احتجت اليكم .:

قال الثلاثة بلسان واحد :

ــ أوامرك يامعلم .:

خرج الثلاثة من الغرفة لتنفيذ الأوامر : عاد أبو العز يذرع الغرفة جيئة وذهابا . ودقات ساعة المكتب تثير جوا من الحذر والترقب والتوجس ؛ كيف تأتى إلى هنا بعد عشر دقائق ؟! لابد أنك قريب جدا من البيت : إنك تتكلم عن البيت كمن يعرف موقعه تماما ؟! عبده عفا الله ؟! لقد تذكرت ؛ إنه الشاب الذى ادعى أنه جاء من طرف فتوح الديب بحثا عن وظيفة فى شركاتى . كان يرتدى بذلة هانى ذات الزرار الضائع : كل تخميناتى صحيحة ؛: الآن استراح بالى . لاخوف على صفاء : ولكن الخوف من الإيصال ؛:

وصل عبده إلى الكافتيريا الواقعة أمام الفيلا . جلس على مائدة عند المدخل . طلب بعض الساندويتشات وكوب شاى . ثلاث نوافذ مضاءة . احداها نافذة غرفة المكتب . اياك يا أبا العز أن تظن أنك أذكى منى . إياك أن تدعى الشرف وتنسى حقيقة نفسك وتحاول التعامل مع الشرطة . سأتركك إلى الغد على أحر من جمر . أعرف جدا أنك ترفض الاستسلام فى كل تحدياتك . لكن هذه المرة استثناء من القاعدة . أعرف أيضا ماذا تفعل الآن ؟ إنك تذرع غرفة المكتب جيئة وذهابا ضاربا أخماسك فى أسداسك . لاتعرف إذا كنت سآتى اليك حسب مكالمتى أم لا ؟! لكننى لن أزورك الآن . فأنا الذى أحدد الزمان والمكان ، أما أنت فما عليك سوى الانتظار كالعوانس .

غادر عبده الكافتيريا عائدا إلى بيت الهرم .

فى شقة الهرم اجتمع الثلاثة : عبده وهانى وأسامه يلعبون الورق فى حين جلست صفاء فى ركن قصى ترقبهم بمزيج من الاحتقار والضيق والاحباط والخوف .

أشعل عبده سيجارة وقال وهو يلقى بورقة على المائدة :

ـ كنت على وشك أن أزور أبا العز بيه هذا المساء !

ذهل هانى :

ـ غير معقول ::

قال عبده بلا مبالاة :

ـ اتصلت به تليفونيا وتحدد موعد اللقاء هذا المساء :: لكننى لم أف بوعدى ::

تحفزت صفاء من ركنها القصى فوق الكنبة وقالت لأول مرة :

ـ كاذب :: كيف تجرؤ على لقاء أبى بعد أن اختطفت ابنته ؟!

ترك عبده أوراق اللعب تسقط من يده على المائدة والتفت اليها :

— أقابله كما يقابله سماحه وحماده وجميل ..

— أتقارن .. نفسك بمساعدى أبى الشرفاء ؟!

اتسعت حدقتا عبده :

— وأقارن نفسى بأبيك أيضاً ..

نظرت إليه صفاء كالقطة المتوحشة المتحفزة :

— اخرس يامجرم ..

تدخل هانى فى الحديث لخوفه من تطور الموقف :

— ما الداعى لاستخدام هذه الألفاظ ياصفاء ؟!

قال عبده ببرود قائل :

— أتركها ياهانى تعبر عن عنجهيتها الفارغة .. فلن تستفزنى هذه الطفلة .. لكننى سأريها أن فى امكانى مقارنة نفسى بأبيها .

لم تسكت صفاء :

— سيخلصنى أبى من براثنك وسيضعك فى السجن بيديه ..

— إذا عدت إلى السجن مرة أخرى .. فسندخله سويا ان شاء الله ..

— انك تهذى .. فالسجن وجد لأمثالك فقط ..

— وأبوك من أمثالى ..

— قلت لك أخرس .. لاتذكر أبى على لسانك ..

نظر أسامه إلى عبده متعجبا لما يدور لكنه إلتزم الصمت عندما لمس برود عبده عندما قال :

— لقد تعودت على السب واصدار الأوامر لأنك تظنين أن أباك أسطورة فريدة فى نوعها.. لكننى سأثبت لك بدون سب واصدار للأوامر أن أباك أسطورة فريدة فى نوعها حقا. ولكن فى مجال لا يخطر على بالك المرفه الناعم الأرستقراطى.

قالت صفاء متساءلة والدموع تتجمع فى عينيها:

— ماذا تقصد؟!

— سأريك ايصالا يدل على حقيقة شخصية أبيك.. وأعتقد أنك من الذكاء بحيث ستدركين معناه..

— لا أريد أن أرى شيئا..

— سأريك رغم أنفك.. لأنه العلاج الوحيد لعنجهيتك الفارغة..

نهض عبده من مكانه وجلس بجوار صفاء على الكنبة وأخرج الإيصال فحاولت صفاء الامساك به لكنه أبعده عنها وقال:

— ستقرئيه دون أن تلمسيه.

فرد الإيصال أمام عينيها واستيقظ حب الاستطلاع عند صفاء فقرأت بعد أن مسحت الدموع فى عينيها:

« تسلمت أنا الموقع أدناه مبلغ خمسمائة ألف جنيه من السيد أبو العز سلطان عربون تعبئة وتغليف زجاجات ماء الحياة على أن يتم تسليمها بعد شهرين من تاريخه. وتدفع غرامة خمسة آلاف جنيه مقابل كل شهر تأخير

المقر بما فيه

« فتوح الديب »

سارعت صفاء إلى القول :

– وما العيب فى هذا ؟! أبى تاجر ومليونير ويتعامل بالألوف بل وبالملايين ؟! هل أصبح الغنى وصمة ؟!

– إن الغنى وصمة عندما يضحى الإنسان بحياة الآخرين وأموالهم من أجل تكديس الثروة ..

– انك تحقد على الأثرياء الناجحين من أمثال أبى ..

– يبدو أننى وثقت فى ذكائك أكثر من اللازم .. انظرى .. زجاجات « ماء الحياة » اسم حركى للأدوية المغشوشة التى يصنعها فتوح الديب فى بيروت لحساب أبيك الذى يقوم بتوزيعها من خلال احدى شركاته على مخازن الأدوية والصيدليات .. ومن الواضح أن الخمسمائة ألف جنيه التى دفعها أبوك لفتوح الديب ستعود على أبيك بمليون جنيه على الأقل ..

بدأ الشك يتسرب إلى عينى صفاء لكنها قاومته بشدة :

– كل ما تقوله أكاذيب وافتراءات واحقاد ..

– أنت تخدعين نفسك لأنك ترفضين رؤية أبيك على حقيقته .. لكن الأيام ستثبت لك أن لص الأرواح لايمكن أن يكون أشرف من لص الخزائن ..

لم تستطع صفاء أن ترد بل انفجرت فى نشيج مرير . حاول عبده أن يربت على ظهرها محاولا تهدئة خاطرها لكنها نفضت يده بعيدا عنها . غمز عبده بعينه لهانى الذى نهض وجلس بجوارها من الناحية الأخرى لكنها رفضت محاولته هو الآخر فلزم الصمت ناظرا إلى جسدها الذى يهتز بعنف داخل نفس الفستان الذى جاءت به من رحلة أسوان . هدأت قليلا وقالت لهانى بين الدموع :

— أيرضيك ياهاني سماع هذه الأكاذيب عن خالك ؟!

— إن عبده لم يكن يقصد تشويه صورة أبيك .. كان كل هدفه سرقة الخزانة للانتقام منه بعد أن رفض تعيينه فى احدى شركاته .. لكن سوء حظ أبيك جعل هذا الإيصال يقع فى يد عبده .. وهو ايصال حقيقى لأننا وجدناه فى الخزانة ..

— كلكم كاذبون حاقدون ..

رد هانى فى حسم :

— لا فائدة من المكابرة .. أنت تعرفين فتوح الديب حق المعرفة .. وتعلمين جيدا أن معاملات أبيك التجارية ليست فوق مستوى الشبهات .. وخاصة أنك فى السنة النهائية من كلية التجارة ..

— الله وحده يعلم أننى لا أعرف شيئا عن معاملات أبى التجارية .. وقد حاولت مساعدته مراراً لكنه كان فى كل مرة يرفض ويطلب منى الانتباه إلى دروسى ومحاضراتى فقط ..

نهض عبده وذهب إلى المائدة وأخرج سيجارة من العلبة الملقاة عليها وأشعلها وقال لصفاء :

— أنا أصدقك تماما .. لكن طالما أنك لاتعرفين شيئا عن معاملات أبيك التجارية فكيف تجزمين أن أباك أشرف الشرفاء ؟!

— لأنه أبى وأنا أعرفه جيدا ..

— هذا لايكفى .. إن بحار أبيك عميقة وواسعة جدا .. ولذلك رفض أن تتعلمى السباحة فيها ..

— لعله خاف على من الغرق ؟!

— كيف تغرقين وأنت على وشك التخرج بعد شهور من كلية التجارة ؟! على الأقل فأنت تملكين من العلم مالم يحصل عليه أبوك !

— لقد تخرج أبي في مدرسة الحياة .. وهي أعظم من أية مدرسة أخرى !

ابتسم عبده ابتسامة مريرة وجذب نفسا عميقا من السيجارة :

— عندك حق .. بدليل أنه بدأ حياته من عشرين سنة حمالا في جمرك السبتية ينام ليلا بجوار البوابة الكبرى فوق الرصيف. وأصبح الآن مليونيرا يشتري البشر ويتاجر في أرواحهم :

قالت صفاء والحنق يكاد يخنقها :

— من أين أتيت بهذه المعلومات ؟!

رد عبده بمنتهى الثقة في النفس :

— عبده عفا الله عندما يريد أن يعرف شيئا فانه يعرف كل شيء عنه :

نام أبو العز سلمان نوما متقطعا مليئا بالكوابيس والهواجس . لأول مرة يخدعه إنسان فى حياته . مجرد لص ومختطف : زاره وجه عبده عفا الله عدة مرات كلما غفت عيناه . رأى عبده وهو يحاول تقبيل صفاء عنوة ، صفعه على قفاه لكن عبده ركله فى مكان حساس . صرخت صفاء مستغيثة بأبيها لكن أحضان عبده كانت أسرع من خطوات أبى العز . فى مرحلة ما بين اليقظة والمنام استمع أبو العز إلى جرس التليفون عدة مرات ، لكن عند اليقظة شبه الكاملة يرى التليفون جثة هامدة . زاره عبده فى مكتبه لكن الشرر كان يتطاير من عينيه الحمراويين . رأى هانى وهو يفتح خزانة غرفة المكتب لكنه لم يجد بها سوى اناء به طبيخ فاسد عفن الرائحة : شاهد صفاء مرتدية ملابس بالية مرتقة وجسدها الأبيض الجميل يظهر من فتحاتها . ناداها صارخا لكنها لم تسمعه وكأنها أصيبت بالصمم : رأى فتوح الديب يهرب فى سيارة مسرعا .

استيقظ أبو العز مجهدا مكتئبا . كم مر من قبل بأزمات وعواصف ومآزق لكنه لم يحدث أن نام ليلة ثقيلة متخمة بالكوابيس والمخاوف مثل هذه الليلة :

كل هذا بسبب لص حقير مثل عبده عفا الله . لا يا أبا العز . لاتتكلم عن المخاوف لأنها لم تعرف طريقها إلى حياتك من قبل . وعار عليك أن تقحم نفسها عليك نتيجة لصراع مؤقت مع لص مثل عبده .

نظر فى ساعة يده الذهبية فوجد أنها لم تبلغ بعد السابعة . لم يحدث أن استيقظ من قبل فى مثل هذه الساعة المبكرة بالنسبة له . لكنه لم يرغب فى العودة إلى الاسترخاء والنوم خوفا من الكوابيس . استلقى على سريره بعد أن أشعل سيجارا . وضع ذراعه اليسرى تحت رأسه وركز عينيه على الثريا البللورية المتلألئة بلا أنوار . انتقل ببصره إلى صورة الفتاة العارية المعلقة على الجدار المواجه للسرير . آه إن وجهها يشبه الفتاة التى قضيت معها عطلة نهاية الأسبوع فى العجمى . كانت أمتع عطلة لكنها انتهت بأسوأ ما يكون . والسبب فى هذا عبده عفا الله . أحس أبو العز بالدماء الساخنة الملتهبة تتصاعد إلى رأسه . جلس فى الفراش . لن تفلت من يدى ياعبده .. لم يتجرأ إنسان من قبل أن يفعل بى ما فعلت . سأسحقك كفيل يطأ نملة .

دق جرس التليفون بجوار السرير . إنه جرس حقيقى هذه المرة رفع السماعة فى سرعة البرق :

ـــ آلو .. نعم .. أنا .. لماذا لم تأت أمس حسب الاتفاق ؟! قلت لك أنا لا أتعامل مع الشرطة .. كل شيء يمكن التفاوض حوله ... .. إذا كنت خائفا فأنا على استعداد أن أقابلك فى أى مكان وأى زمان تحددهما ... ... إن سلامة ابنتى فوق كل اعتبار .. ماذا تقول ؟! تريد فدية قدرها مئة ألف جنيه مقابل الافراج عن صفاء ؟! ... وهو كذلك .. تحت أمرك .. المهم تنفيذ الاتفاق . وطالما أنت على استعداد للتفاهم فانى أريد أن أسألك : ألم تجد شيئا آخر فى الخزانة مع النقود ؟! متأكد ؟! وهو كذلك سنتفاهم حول كل

شيء :: وربما أصبحنا أصدقاء فى المستقبل :. ما محبة بلا عداوة :: تحت أمرك :: :: فى أى وقت ؟! بعد ربع ساعة .. إياك أن تخلف ميعادك مثلما فعلت أمس ؟! المال وكل شيء فى انتظارك :. .. استعمل ذكاءك :. كيف أبلغ وابنتى تحت رحمتك ؟! وهو كذلك فى انتظارك .

وضع أبوالعز السماعة وأسرع إلى غرفة المكتب وامتطى الكرسى وفتح الخزانة وأعادالبحث فيهابمنتهى الحرص والدقةلكنه لم يجد الإيصال. ربماوقع من عبده على الأرض ولم يلحظه. بحث أبوالعز تحت الكرسى والمكتب وفى سلة الأوراق المهملة . وفى كل أدراج المكتب لكن دون جدوى .

غسل وجهه وهرع إلى غرفة النوم وارتدى ملابسه وذهب إلى الصالون وأشعل سيجارا آخر فى انتظار عبده . كان الصمت مطبقا على كل حجرات الفيلا . حتى الخدم لم يستيقظوا بعد ، وهذا شيء استراح له أبو العز لأنه يريد كل شيء أن يسير فى طى الكتمان .

تناهى إلى أسماعه جرس الباب الموسيقى فخف إليه قبل أن يستيقظ الخدم وفتح الباب . وجد أمامه عبده عفا الله يرتدى سروالا من الجينز وصديريا من الصوف الأسود فوق قميص رمادى اللون . كان واقفا بمنتهى الجرأة والثقة بالنفس : نظر حوله عدة مرات ثم ابتسم لأبى العز وقال :

– صباح الخير ::

رد أبوالعز مصطنعا الابتسام :

– صباح النور :: تفضل أدخل ..

دخل عبده وأغلق أبوالعز الباب خلفه ثم تقدمه إلى الصالون : وعبده يمسح الجدران بعينيه مذهولا لمظاهر البذخ والرفاهية التى لم تقع عليها عيناه

وقت اقتحام الفيلا وسرقة الخزانة . كما ضاعف من ذهولة ثقة المليونير الكاملة فى نفسه برغم موقف ابنته الحرج. دخل عبده الصالون الكلاسيكى المذهب وظل واقفا إلى أن أشار له أبوالعز بالجلوس فجلس وجلس أبوالعز على المقعد المجاور : فتح علبة السيجار الموسيقية وقدمها لعبده الذى تناول سيجارا وعلى وجهه ابتسامة تمزج الاعجاب بالحرج. أشعل أبوالعز السيجار له فقال عبده :

— أخاف أن أتعود على مثل هذه الأصناف الفاخرة الثمينة ..

فرد أبو العز والدهاء يقطر من عينيه :

— لاتخف .. فاذا تم الاتفاق بيننا ونفذ بالفعل.. فربما أصبحنا شركاء .. وأصبح السيجار من ضرورات حياتك ..

آه . . ياداهية .. يامالك القول المعسول واللسع المسموم .. تريد لخاطف ابنتك ، وسارق خزانتك أن يصبح شريكا لك .. عليك الآن أن تخوض بحار الدهاء معه . وهو الذى رفض من قبل تعيينك فى مجرد وظيفة حقيرة ..

أجاب عبده :

— أنا لا أطمع فى هذا الشرف الكبير . وكل ما أريده هو المئة ألف جنيه مقابل عودة صفاء سالمة إلى بيتها !

تطلب مبلغا ضخما مثل هذا بهذه البساطة أيها الكلب المسعور .

— أموالى كلها تحت أمرك .. متى تعود صفاء ؟!

— عندما تدفع المبلغ ..

— وكيف سيتم التسليم والتسلم ؟!

– بأى طريقة تعجبك .. المهم أن يتم دون تدخل أية عناصر خارجية يمكن أن تهدد سلامة صفاء ..

– إذن فسلامة صفاء فى الميزان ؟!

– كل شىء جائز فى أيامنا هذه ..

– لكن المبلغ الذى طلبته كبير للغاية ! !

– لن أساوم ..

– لا أقصد .. ولكنى لا أحتفظ بأموالى فى الخزانة كما رأيت بنفسك ..

– مجرد شيك على البنك يحل القضية كلها ..

– ولا أحتفظ بأموالى فى البنوك لأننى أستثمرها دائما فى شركاتى ومشروعاتى فى مجال الانفتاح والاستثمار والاستيراد .. ولذلك فأنا أحتفظ فقط بما يكفى حاجتى المؤقتة فى الصرف على نفسى وعلى صفاء ..

– اذن .. كيف سيتم التسليم والتسلم ؟!

فتح أبوالعز علبة موسيقية أخرى مليئة بالحلوى والشيكولاتة وقدم منها لعبده الذى تناول قطعة وهو على وشك الضحك مما جعل أبوالعز يعلق :

– ما الذى يثير ضحكك ؟!

– كل شىء فى هذا البيت يعمل بالموسيقى !

– إننا أناس نحب الفن ونعشق الحياة .. ونحب كلمة الشرف ونضحى بحياتنا من أجلها ..

ونحن خريجو السجون غير مسموح لنا بالفن أو الحياة أو الشرف الذى يتحدث عنه تاجر الأرواح ..

– أنعم وأكرم ..

قالها عبده وهو يلتهم قطعة الشيكولاتة ثم أضاف متسائلا

— لم نتفق بعد على التسليم والتسلم ؟!

— لابد أن تمنحنى فرصة يومين أو ثلاثة حتى أدبر لك المبلغ ؟!

— وماذا عن صفاء !؟

— أفرج عنها اليوم .. وسأمنحك كلمة شرف أن يكون المبلغ عندك بعد يومين أو ثلاثة ..

— التسليم والتسلم لابد أن يتما فى نفس اللحظة ..

— ألا تثق فى كلمة أبى العز سلمان ؟!

دق جرس الباب الموسيقى فقفز عبده من مكانه كمن لدغه عقرب :

— من الذى يدق الجرس فى ساعة مبكرة مثل هذه ؟

ابتسم أبو العز سعيدا بالخوف الذى ارتسم على وجه عبده وقال :

— لاتخف إنه بائع الصحف ..

سمع عبده أقدام تتحرك فى الشقة ولمح امرأة متوسطة السن فى طريقها إلى الباب الذى فتحته ثم أغلقته مرة أخرى مما جعل الطمأنينة تسرى فى كيان عبده فجلس فى مكانه مرة أخرى .

دخلت المربية الصالون وألقت بتحية الصباح وتركت الصحف والمجلات على المائدة الذهبية الصغيرة أمام أبى العز ثم خرجت . علق عبده مشيرا بيده إلى الصحف :

— لا أرغب فى أن أذكر مرة أخرى فيها ..

أجاب أبو العز بمنتهى الثقة التى تجلت فى طريقة اشعاله للسيجار :

— لن يعرف أحد شيئا عما يدور بيننا ..

– سمعت أن سيادتك رشحت نفسك لانتخابات مجلس الشعب القادمة ؟!

– لاتصدق الإشاعات . . ليس عندى وقت للعمل بالسياسة .. كانت تجربة لن أكررها ..

– لم نتفق بعد على التسليم والتسلم ؟!

– يبدو أنك لاتثق فى كلمتى ..

– الثقة مسألة ليست لها علاقة بما يدور بيننا .

– اذن فصفاء ستظل رهينتك حتى تحصل على المبلغ ؟

– كذلك نظر ..

– وماذا يحدث لصفاء لو لم تحصل على المبلغ ؟!

– لن تراها مرة أخرى ..

– تعنى قتلها ؟!

– لايهم ماذا أعنى .. فالنتيجة واحدة .. لن تراها مرة أخرى ..

– أتعرف عقاب خطف الأنثى ؟!

– عملت حسابا لكل الاحتمالات .

هذا الدهاء يحسدك عليه أعتى المجرمين . أخيرا يا أبا العز وجدت أمامك معضلة مستعصية عليك أن تحلها .

– إنك لن تمس صفاء لأنك تريد المبلغ ..

– المشكلة فى المبلغ وليست فى صفاء ..

– لاتضطرنى إلى ابلاغ الشرطة .. يكفيك كلمتى .. انها فى السوق أغلى من أى مستند أو صك ..

أى سوق ياتاجر الأرواح :: انك تتشدق بكلمة الشرف كاللبانة فى فمك : فلنلعب على المكشوف فى مباراة يواجه فيها مجرم كبير غنى مجرما صغيرا فقيرا :

— إنك لاتستطيع ابلاغ الشرطة لأنك تخاف منهم مثلى تماما !

هذا الثعبان الصغير : إلى متى يتدفق السم الزعاف من أنيابه .

— ما الذى أوحى اليك بهذه الفكرة ؟!

— فتوح الديب

تريدأن تصيبنى فى مقتل : يبدو أنك تخفى الكثير بين أنيابك .:

— مرة أخرى: فى المرة الأولى ادعيت أنه صديق أبيك وأنك لم تره :: وهذه المرة هو الذى أوحى اليك بهذه الفكرة ؟! !

فى المرة الأولى كذبت عليك ::

— وما الذى جعلك صادقا هذه المرة ؟!

— فتوح الديب كان زميلى فى السجن وحكى لى كل شىء عن « ماء الحياة » ::

آه :: أصبتنى فى مقتل :: لكننى لن أستسلم ::

— وماذا قال لك فتوح عن « ماء الحياة » ؟!

— قال لى ما تعرفه سيادتك تماما ..

— إن « ماء الحياة » مياه معدنية نصنعها من أجل مرضى المعدة والأمعاء :: هذا هو ما أعرفه عنها ::

— كلك إنسانية :: لكنه قال شيئا آخر ::

أصبحت المناورة بلا جدوى ::

ــ ماذا قال؟!

ــ قال إنها عملية غش الأدوية المستوردة وبيعها فى الأسواق العربية..

ــ لماذا ادعيت أنك لم تجد الإيصال فى الخزانة ؟!

ــ كان من المستحيل أن أتكلم عن الإيصال فى التليفون حتى لا يمسك شىء..

ــ قلبك كبير ..

ــ هل أدركت الآن أن مبلغ المئة ألف جنيه مبلغ متواضع للغاية ؟

ــ وهل يدخل تسليم الإيصال ضمن الصفقة؟!

ــ يمكننا الاتفاق على هذا ..

ــ لا أريد الإيصال .. انه لايهمنى .. فكل معلوماتك مزيفة أو كاذبة.. إن إنتاج المياه المعدنية ليس جريمة ..

ــ كما تحب ..

نهض عبده من مكانه وتبعه أبوالعز متوترا قلقا . أضاف عبده :

ــ قل لى متى سيكون المبلغ جاهزا حتى أتصل بك وأحضر صفاء ؟

ــ أليس لديك تليفون أطلبك فيه ؟!

ــ الفقراء أمثالنا يتعاملون فقط مع تليفونات الأرصفة ..

ــ اتصل بى غداً .. ويستحسن صباحا .. على أن تكون صفاء جاهزة للعودة مقابل حصولك على المبلغ .

ــ وهو كذلك ..

سار عبده إلى باب الفيلا وخلفه أبوالعز صامتا . توقف عبده فجأة والتفت إليه وقال :

— لاترسل خلفى أحدا من رجالك لإقتفاء أثرى.. لأنك إذا فعلت هذا فستكون الضحية ابنتك ورجلك فى آن واحد..

قال أبو العز وقد غمرته أمواج الاحباط :

— أنا لا أستخدم هذه الأساليب ..

خرج عبده من الباب الحديدى وسار حتى الناصية وتوقف . كانت الشمس قد افترشت الشوارع التى امتلأت بالمارة . وفتحت المحال أبوابها . لقد أصبح خبيرا بملامح المنطقة كأنه أحد سكانها : رأى عربة حمراء صغيرة تخرج من باب الفيلا يقودها رجل وجهه مألوف لعبده . فجأة توقفت العربة بحذاء الرصيف . تذكر عبده سائقها . إنه أحد رجال أبى العز الذين رآهم فى مكتبه يوم ذهب باحثا عن وظيفة . إنك لاتستخدم هذه الأساليب يا أبا العز . مشكلتك يا أبا العز معى أننى أفهمك أكثر من اللازم . كأننا نعرف بعضنا بعضا منذ عشرين سنة . ربما لأننا وجهان لعملة واحدة .

هيه أيتها الكافيتريا العزيزة. إنك تساهمين فى رسم خططى دون أن تدرى: هل أعددت لى افطارا شهيا احتفالا بالغزو الناجح للثعبان فى وكره : إنك ياعبده أصبحت تتعامل على مستوى الأكابر . وهذا فى حد ذاته انتصار .. وأى انتصار.

دخل عبده الكافيتريا وجلس فى مكانه الأثير عند المدخل . حياه النادل الذى اعتاد وجوده من حين لآخر وأحضر له الساندويتشات المفضلة وابريق الشاى والسكر . تناول عبده افطاره بمنتهى التمهل وعيناه على سماحه الذى غير موقع عربته الحمراء الصغيرة بحيث أوقفها فى نفس المكان المواجه للفيلا والكافيتريا والذى وقفت فيه عربة هانى من قبل يوم سرقة الخزانة .

لم يسأم سماحه من الانتظار والمراقبة ، ولم يسأم عبده من الجلوس عند مدخل الكافيتريا وممارسة لعبة القط والفأر . لكن مع ازدياد عدد المارة فى الشوارع وارتفاع ضجيج العربات غادر عبده مكانه وأشار لسيارة أجرة بالوقوف وركب طالبا من السائق التوجه إلى مصر الجديدة . وسرعان ما تحركت العربة الحمراء فى أعقاب عبده . خرجت السيارة الأجرة من شوارع الزمالك الداخلية إلى الشارع الرئيسى فى اتجاه كوبرى أبو العلا . نظر عبده خلفه فرأى سماحه يتعقبه متراً بمتر برغم الزحام والضجيج واشارات المرور المربكة .

انتقلت المطاردة الهادئة المكتومة عبر شارع ٢٦ يوليو ثم شارع رمسيس فميدان العباسية إلى شارع الخليفة المأمون . عندئذ أدرك عبده أن عليه أن يفكر فى حيلة أخرى لأنه لم يغب عن عينى سماحة لحظة واحدة . فجأة رأى دار للسينما فاتحة أبوابها لجمهور الحفلة الصباحية . طلب من السائق التوقف ومنحه أجره وعبر الطريق إلى الجانب الآخر حيث دار السينما .

فوجىء سماحة بهذا التحول فانطلق بعربته وعبر شريط قطار المترو بطريقة هوجاء جعلت شرطى المرور يصرخ فيه عندما أوشك المترو أن يصطدم بمؤخرة العربة . لكن سماحه لم يهتم بل انطلق تجاه دار السينما وأوقف العربة وتركها إلى شباك التذاكر وحصل على تذكرة لكن عبده كان فص ملح وذاب . نظر سماحة حوله كالمسعور . لم نجد عبده فدخل الدار دون تفكير .

كان عبده قد دخل القاعة واختار ركنا قصيا فى الظلام . كان العرض قد بدأ ولم تكن الصالة مزدحمة بالرواد . بعد دقائق لاحظ فى الظلام شبح رجل

يتنقل من مكان لآخر محاولا تفحص وجوه من يجلس بجوارهم . إن شبحه فى ضوء آلة العرض يؤكد أنه سماحة .

ذهب عبده إلى دورة المياه ومنها إلى خارج الدار حيث وجد عربة سماحة الحمراء مغلقة . نظر حوله . لم يجد أحدا . تنفس الصعداء وسار حيث ابتلعه شارع السوق الرئيسى فى مصر الجديدة .

— ١٣ —

نظر هانى فى ساعته فوجدها الخامسة مساء ولم يصل عبده بعد. ترى ماسبب تأخيره ؟! كان جالس بالقرب من صفاء التى قبعت متكورة على الأريكة المواجهة لمائدة الطعام ، تحاول تغطية ساقيها بقدر الإمكان بعد أن لاحظت هانى مركزا عينيه عليها. خيم الصمت المطبق عليهما ولم يسمعا سوى نباح بعض الكلاب فى الحقول المجاورة. حاول هانى أن يخترع موضوعا للحديث لكن الأفكار تلاشت كلها . غطت الصفرة وجه صفاء الوردى واتسعت الهالات السوداء حول عينيها :

جاء أسامة من الغرفة المجاورة وقال لهانى :

ـــ أعتقد أن الآنسة ليست فى حاجة لكل هذا الحرس . ولذلك استأذن للذهاب لمقابلة صاحبة الكاباريه وتصفية بعض الحسابات حتى لا تطردنى . عصفور فى اليد خير من ألف على الشجرة .

أجاب هانى بترحيب أثار دهشة أسامة :

— يمكنك الذهاب . . إنني لا أحب أن أقف فى طريق رزقك . .

— سأعود بمجرد تسوية أمورى حتى لاتظن صاحبة الكابارية أننى تركت العمل . .

— أتمنى لك التوفيق . .

غادر أسامة المنزل . وفجأة شعر هانى أنه اختلى لأول مرة بصفاء التى لاتزال تقبع متكورة وقد دفنت رأسها بين يديها . ما أجمل جسدها برغم هزاله . كم تمنى أن تصبح زوجته ؟! لكن نفورها منه جعله يحتقر نفسه ويكرهها . إنها لاتزال صامدة برغم الظروف العصيبة التى تمر بها . إننى لا أستطيع أن أنزع من داخلى ذلك الشىء الغامض الذى يشدنى اليها برغم العواطف المتضاربة والأحاسيس المتناقضة . ناداها بصوت رقيق يخفى تحته شهوة عارمة :

— صفاء . .

لم ترد

— صفاء . .

لم ترد

ربت على كتفها فدفعت بيده بعيدا .

— أتكرهيننى إلى هذا الحد ؟!

— أتريدنى أن أقع فى غرام سيادتك ؟! وخاصة بعد كل ما حدث ؟!

نصف العمى ولا العمى كله : أن تتكلم بخشونة وقسوة خير من أن تلتزم هذا الصمت الذى يحاكى صمت القبور :

— أنا تحت أمرك فى كل ماتطلبيه !

— كل ما أطلبه أن أعود إلى بيتى ..

— فلننتظر عودة عبده لنرى نتائج زيارته لأبيك ..

— أتصدقه ؟! أتظن أنه يجرؤ على دخول بيتنا بالطرق الشريفة؟!

— عبده يستطيع أن ينفذ كل الأفكار التى تخطر على باله ..

— كلكم مجرمون كاذبون .

— سألتمس لك العذر ولن أرد ..

— أشكر لك سمو أخلاقك ..

نظرت إليه فى سخرية مريرة ومع ذلك شعر بالأنوثة الطاغية فى نظراتها . حاول أن يبتسم لكنها أشاحت بوجهها بعيدا عنه . رأى صدرها الصاعد الهابط فى توتر لذيذ فجرى الدم الساخن فى العروق وتدفق إلى المخ . الصمت والعزلة والأنوثة والرغبة والمساء القادم قبل قدوم عبده ، كلها موجات من الاحساس الغامر المدغدغ لغرائزه . فجأة صرخ فى صوت كفحيح الأفعى مناديا صفاء :

— صفاء .. أنت لاتعلمين شعورى تجاهك .. إنى أعبدك ..

زاد انكماشها فى الركن القابعة فيه صامتة . اقترب منها مربتا على ظهرها فنفضت يده وأعادت رأسها بين كفيها : قال محاولا الاقتراب أكثر :

— صدقينى ياصفاء .. لو طلبت لبن العصفور لأحضرته لك ..

قالت دون أن تنظر إليه :

— أنا لا أريد لبن العصفور . أريد فقط العودة إلى بيتى ..

— سيأتى عبده حالا وستعودين باذن الله إلى بيتك ..

— لاتتكلم اذن عن ابن العصفور .

هذا القلب المنيع سأغزوه بالقوة بعد أن رفض الرجاء الملح . هذا الرأس الجميل الصلب سأعرف كيف أجعله يلين . لم ألق منك سوى التمنع والرفض والاهانات المتصلة . لك الحق فى أن ترفضى شابا مثل عبده أو أسامة أو أى شاب آخر . لكن أنا إبن عمتك الذى نشأ معك عاما بعد عام . كم لعبنا سويا ! كم أثرنا الرذاذ فى وجوه الآخرين فى حوض سباحة نادى الجزيرة ! كم طبعت قبلاتى على وجنتيك فى أعياد ميلادك ! كم نمت بجوارك عندما كانت أسرتينا تلتقيان فى الصيف فى كابينة ستانلى بالأسكندرية أيام الطفولة ومطالع الصبا ! كم أخذتك على دراجتى وأنت تجلسين أمامى وكأنك بين أحضانى ! كل هذا ذهب أدراج الرياح وأصبحت ابن العمة الفاشل المنبوذ الوصمة ، فى حين كنت أنت الابنة الفائتة الناجحة للمليونير العصامى . كم اقترض هذا المليونير من أمى وأبى ! هكذا قالت لى أمى . لقد كبرت ياصفاء بعد أن ودع أبوك أيام العمل فى جمرك السبتية . كان مجيئك قدم السعد برغم أن أمك ماتت يوم ولادتك . أنا لا أعى هذه الأيام لأن عمرى لم يكن يتعدى السنوات الخمس . لكننى عرفت هذا التاريخ من أمى . وأمى ياصفاء لاتكذب . إن فضل أمى السيدة الوقور على أخيها الذى بدأ حياته فاشلا مثلى تماما ، فضل لاينسى . لكن مع تدفق الثروات الغامضة وخاصة فى السنوات العشر الأخيرة أصبحت ياصفاء ابنة الأكابر التى تخجل من ابن عمتها الضائع الفاشل . لكن لاتنسى ياصفاء أننا كلنا أبناء آدم وحواء .

فجأة هجم هانى على صفاء محاولا احتضانها . صرخت ورفسته بقدمها بكل قوتها فألقت به بعيدا . نهضت من مكانها محاولة الهرب لكنه هجم عليها

كالوحش الكاسر فارتمت تحته فوق الكنبة وضربات يديها مستمرة على صدره . حاول أن يطبق بشفتيه على شفتيها لكنها أشاحت بوجهها فسقطت شفتاه على رقبتها . صرخت وصرخت وصرخت لكن صرخاتها لم تشفع لها فقد أحالت طراوة صدرها رغبته فيها إلى شهاب قادم من الفضاء الخارجي ولابد أن يحترق بملامسته الغلاف الجوى . جذب صدر فستانها فمزقته أصابعه وجرحت أظافره نهدها الأيسر . امتزج الألم بالرعب لكنها قاومت احساسا طاغيا بالاغماء وتركت يديها تضربان وقدميها ترفسان بقوة لم تعرفها من قبل . وسط الصرخات الملتاعة والأنفاس اللاهثة انفتح باب الشقة وظهر عبده الذى سرعان ما أغلق الباب وهجم على هانى وأزاحه بعيدا عن صفاء بلكمة فى فكه الأيسر ألقته فوق المائدة فآلمه ظهره عندما اصطدم بأحد الكراسى المحيطة بالمائدة . إلتقطت صفاء أنفاسها وضمت صدر فستانها وانكمشت فى ركن الكنبة ناظرة إلى عبده فى رعب واستعطاف . وقف هانى لاهثا متربصا لايدرى ماذا يفعل . صاح عبده محاولا تهدئته :

ـ هل تدرى يامجنون عقوبة الإغتصاب مع الإختطاف ؟!

ـ لم يكن لك أى حق فى أن تلكمنى !

ـ هل كنت تتوقع أن أكلمك هامسا وسط صرخاتها وهجومك الوحشى عليها ؟!

ـ إنها ابنة خالى ولا دخل لك فى الموضوع ..

ـ ابنة خالك بعد أن نفض الشركة القائمة بيننا .. أما الآن فأنا مسئول عنها وخاصة أن أباها يعرف من اختطفها ..

قام عبده وربت على ظهر هانى :

— لم أفعل هذا إلا بدافع خوفى عليك :. لا أريد أن أضيف الاغتصاب إلى السرقة والاختطاف... إن حياتك ليست بهذا الرخص حتى تجازف بها فى لحظة طيش :

بدت بوادر الاقتناع على وجه هانى :

— وماذا تريد منى أن أفعل الآن ؟!

— لا شيء سوى أن تهدىء نفسك ..

— كيف؟!

— حاول أن تريض قليلا وسط الحقول قبل حلول الظلام .. ولا تعتمد مرة أخرى على أن الحقول المحيطة بالبيت هى التى منعت الآخرين من سماع صرخاتها : أى فلاح مار بماشيته بالقرب من هنا يمكن أن يصل بك إلى حبل المشنقة .

استمع هانى لأول مرة والخوف يسرى داخله . « حبل المشنقة » كلمتان صغيرتان لكنهما مرعبتان . اجتاحت هانى قشعريرة قضت على البقية الباقية من الرغبة داخله : نظر إلى عبده فى استسلام طفولى وفتح الباب وخرج مغلقا إياه خلفه .

سمع عبده صوت محرك سيارة هانى يدور منطلقا بها بعيدا . نظر إلى صفاء فرآها قابعة واضعة رأسها بين كفيها وجسدها كله ينتفض : لعن الظروف الكئيبة التى جعلت منه أداة تعذيب لهذا المخلوق الجميل : قال لها وهو يتحكم فى نبرات صوته حتى لا تبدو نشازا :

— اصعدى إلى غرفة النوم لتسترخى .: وسأحضر لك فستانا آخر من الدولاب.. وأرجو أن يكون مقاسك ..

لم ترد سوى بانتفاضة جسدها المستمرة .

— أرجوك .. لا أستطيع أن أراك على هذه الحال .. لقد أحضرت بعض المأكولات التي ألقيتها أرضا عندما رأيت تصرفات هذا المجنون .

دار عبده حول المائدة فوجد اثنتين بجوارها . وضعها عليها . نظرت إليه صفاء وهي لاتدري هل هذا هو سلوكه الطبيعي أم أنه يدعي المثالية مؤقتا ؟!

نظر إليها عبده فالتقت النظرات لأول مرة فقال :

— اصعدي لتستريحي .. وسأجهز لك وجبة خفيفة .. وثقي أنني سأحميك حتى لو كان الثمن عمري ..

أحست بالصدق يسري مع كلماته لأول مرة . دون أن تنبس ببنت شفة نهضت وصعدت السلم الحلزوني إلى غرفة النوم التي أغلقتها خلفها . أسرع عبده إلى غرفة النوم المقابلة وفتح الدولاب حيث وجد فستانين أحدهما يقارب حجم صفاء . فستان وردي اللون لابد أن هاني كان قد أحضره لاحدى صديقاته . حمله وذهب إلى باب غرفة صفاء وطرقه طرقات خفيفة سمع في أعقابها صوتها :

— لحظة واحدة ..

فتحت صفاء الباب وهي لاتزال ممسكة بصدر فستانها الممزق .مد عبده يده بالفستان دون أن ينظر اليها فأخذته وأغلقت الباب مرة أخرى .

عجيب أمر عبده هذا : هل يمكن لمجرم ولص وخاطف أن يعرف الأخلاق والقيم ؟! إنه لم يحاول مجرد التلصص بعينيه عندما فتحت الباب . وخاصة أن صدري شبه العاري كفيل بجذب عينيه وهو الشاب المتفجر حيوية والذي لم يعد يخاف شيئا حتى السجن والمشنقة : المقارنة عجيبة بين ما فعله هاني ابن الأصول وابن عمي وبين مافعله عبده ابن الأزقة وخريج السجون .

ذهبت صفاء إلى المرآة . تعرت من الفستان الممزق . لأول مرة اجتاحها شعور عجيب من الأمن والطمأنينة . إنها لاتخشى أن يفتح الباب وهى فى وقفتها العارية هذه . لقد طرق على الباب مستأذنا . نظرت إلى جسدها الجميل واجتاحها شعور بالضيق عندما تذكرت أنها لم تستحم منذ أسبوعين : أى منذ بداية رحلة أسران . كذلك اشتاقت إلى تغيير ملابسها الداخلية لكن عليها أن تتذكر دائما أنها رهينة هؤلاء الأشقياء وأن مصيرها لايزال معلقا .

ارتدت الفستان الوردى وكانت دهشتها كبيرة عندما وجدته يناسبها تماما . منحها اللون الوردى احساسا غامضا بالتفاؤل . ذهبت إلى الحمام وغسلت وجهها ومشطت شعرها الفاحم الناعم وهبطت على السلم الحلزونى فوجدت عبده وقد أعد المائدة . ساندويتشات من الكباب والكفتة . طماطم وخس وخيار . زجاجات مياه غازية مثلجة . راديو كاسيت تنبعث منه موسيقى هادئة .

وقفت عند نهاية السلم مبتسمة لأول مرة . أحس عبده بوجودها وكان منهمكا فى تقطيع الخيار . رأى ابتسامتها الساحرة والفستان الوردى الذى امتزج بها . ابتسم هو الآخر قائلا :

— تفضلى .. أرجو أن يعجبك الطعام .. ليتنى كنت أعرف الطهى ..

لأول مرة منذ ذلك المساء المرعب انفتحت شهيتها للطعام . تقدمت نحو المائدة فأسرع عبده وأفسح لها الكرسى فجلست وجلس هو فى الكرسى المقابل لها . فتح زجاجة مياه غازية وقدمها لها ثم دفع بأحد الأطباق تجاهها :

— يجب أن تأكلى .. فنحن ضحايا ظروف واحدة ..

تناولت أحد الساندويتشات . قضمته وهى تقول :

— هل يمكن أن أسألك سؤالا ؟!

— وأنا تحت أمرك ..

— لاتؤاخذنى .. فان سلوكك اليوم معى يتنافى تماما مع فكرتى عنك كلص ومختطف وخريج سجون .

تناول عبده ملعقة سلاطة وقال :

— سؤال وجيه جدا ويمنحنى الفرصة كى أحكى لك كل مايجيش بصدرى .

— تفضل ..

فجأة تذكر عبده شيئا فسأل صفاء :

— أين ذهب أسامة ؟! لم أره منذ وصولى ..

— إستأذن من هانى لتصفية بعض أموره مع صاحبة العمل ..

— وهل سيعود ؟!

— أظنه قال هذا .. لكن لماذا السؤال ؟

— لابد أن أعرف تحركات من أعمل معهم .. المهم .. نعود إلى سؤالك الوجيه ..

— تفضل ..

— لابد أن تتأكدى ياعزيزتى أنه لايوجد إنسان يولد مجرما .. فكل المجرمين ضحايا الظروف التى يمرون بها ..

— وماذا تقول عن هانى؟!

— كان هو أيضا ضحية الظروف: : فالثراء والتدليل يمكن أن يؤديا إلى نفس نتائج الفقر والقسوة .. ومن هنا كانت الصداقة التى نشأت بينى وبين هانى .. فأنا لم أستطع الحصول على أى شىء طلبته فى طفولتى وصباى فى حين أن هانى اعتاد الحصول على كل شىء بمجرد اشارة من يده : لم أعرف فى طفولتى وصباى سوى الضرب والإهانة والإذلال . تزوج أبى مرات عديدة وأنجب أطفالا لم يكن يعرف عددهم أو أسماءهم . عملت صبيا فى ورش عديدة للميكانيكا والنجارة وفى نهاية اليوم كان أبى يضربنى ليحصل على معظم أجرى . كنت أقضى النهار بين ضرب المعلم صاحب العمل والأب صاحب البيت. عندئذ قررت الهرب طالما أننى أقوم بالصرف على أبى وليس العكس ، وطالما أن انتظامى فى الدراسة أصبح مستحيلا . كنت أحلم أن أصبح مهندسا . أما هانى فلم يحلم بأى شىء سوى بالمتعة المؤقتة . لم يكن يحب العمل : والغريب أنه ترك المدرسة بعدى بشهور قليلة لأنه لم يحتملها بدونى على حد قوله . ولم تنقطع صلة هانى بى بعد ذلك .

سألته صفاء :

— ألم يكن لديك أدنى احساس بالذنب لأنك تسببت فى ترك هانى للمدرسة ؟!

— لم يكن عند هانى أية قابلية للدراسة وأوشك على استنفاذ مرات التخلف .. وحاولت مراراً الابتعاد عنه لكنه كان مصرا على الارتباط بى .. ربما لأنى كنت أمثل الجرأة العاقلة التى لا يمتلكها هذا الطائش الأهوج.

بعد أن انتهت من زجاجة المياه الغازية قالت صفاء :

— دعنا الآن من هانى ولنعد اليك . ماذا فعلت بعد أن تركت المدرسة ؟

— مارست حرفا عديدة فى مجال الحدادة والنجارة والميكانيكا .. وكانت آخر حرفة لى تصليح وصيانة الخزائن الحديدية . كانت ورشة صغيرة فى

حارة ضيقة بوكالة البلح ، لكنها كانت تتعامل مع أصحاب الشركات والمصانع والمؤسسات وغيرهم من الذين يلعبون بالأموال لعبا . كانت العربات الفاخرة تقف عند مدخل الحارة وينزل منها أصحاب الخزائن أو الذين يرغبون فى شراء خزائن جديدة . كان بعضهم يمنحنى خمسة جنيهات بقشيشا كأنه يمنحنى خمسة مليمات ، والبعض الآخر لم يحتمل أن يخرج من جيبه مليما واحداً . وكان أبوك أحد زبائن الورشة . اشترى منها بنفسه ثلاث خزائن ، منها الخزانة التى وضعها فى غرفة المكتب .

غطت سحابة من الكآبة وجه صفاء . ندم عبده على ذكر أبيها . قال لها فى عجلة ورجاء :

— كل شىء سينتهى بخير ان شاء الله ..

— أرجو .. لكن ما الذى جعلك تترك الورشة ؟!

— أشعل زبائن الورشة الطموح الأعمى داخلى . كنت فى العشرين من عمرى . تأكدت أننى سأظل مكانى فقيرا معدما بائسا إذا لم أفكر فى طريق جديد . فجأة ومضت فى ذهنى فكرة كأنها مس الشيطان . كنت قد اشتهرت بين عمال الورشة بأنه لاتوجد خزانة تستعصى على أصابعى ، حتى تلك التى تستعصى على أصحابها . وهذا يعنى أن كل خزائن الأثرياء مفتوحة أمامى ولاينقصنى سوى دخول بيوتهم بطريقة أو بأخرى : عرضت الفكرة على هانى فطار بها فرحا لأن أمه فى ذلك الوقت كانت قد تبرأت منه بعد أن كثرت مصائبه . وانضم الينا أسامة وكونا العصابة التى أطارت النوم من عيون الأثرياء أربع سنوات متصلة عشنا فيها كالمليونيرات حتى جاء يوم لابد أن يجىء عندما سطونا على خزانة شركة أبو الفوارس للاستيراد والاستثمار : ووقعنا فى كمين أعده رجال المباحث لكن هانى وأسامة استطاعا الهرب فى أثناء

انهماكى فى فتح الخزانة . وتم القبض على . لكنى لم أجر هانى وأسامة للتحقيق فهما سند لى خارج السجن وإن كانا لم يهتما بالسؤال عنى . وحكم على بالسجن تسعة أشهر لعدم ثبوت السرقات السابقة على . وكانت فترة السجن تجربة جعلتنى أتوب توبة صادقة من أعماق قلبى . وقررت البحث عن عمل شريف مهما كان متواضعا . لكنه فى اللحظة التى فتحت فيها أبواب السجن لى ، أغلق المجتمع أبوابه تماما فى وجهى . أصبحت وصمة يتهرب منها الجميع . وهذا لايعنى سوى أن الجميع قد قرروا قتلى جوعا . عندئذ قلت لنفسى : إذا كان المجتمع يستطيع أن يقتل إنسانا مثلى جوعا دون أن تهتز له شعرة لارتكابه هذه الجريمة ، فليس أقل من أن أرتكب جريمة سرقته فى مقابل هذا العداء الصريح . وعدت إلى الإتفاق مع هانى وأسامة وحدث ماتعرفينه أنت .

تنهدت صفاء ومدت يدها لاسكات الراديو وهى تقول :

— وماذنب أبى وأنا فى كل هذا ؟

— ذهبت إليه كى يمنحنى أية وظيفة مهما كانت حقيرة ، لكننى لم أجد منه سوى اللف والدوران والذل والإهانة ..

— ولهذا قررت الإنتقام منه ؟ !

— لكن ليس فى شخصك .. يعلم الله أنك لم تكونى فى اعتبارى .. لكن القدر وضعك فى طريقى .. وكان ماكان ..

— وماذا سيكون مصيرى ؟ !

— ثقى ياصفاء أنك لست قضيتى .. وسأطلق سراحك سواء حصلت على المال أم لا .. فأنا أملك مستندا لن يهدأ لأبيك بال إلا بعد الحصول عليه ..

— لاتؤاخذنى فأنا لا أصدق حكاية المستند هذه ..

ـ لك الحق فى هذا : إنه موضوع يمس شرف أبيك .. لكنك فتاة عاقلة ومتزنة ويمكنك مواجهة الحقائق مهما كانت مرة ..

ـ وما هى هذه الحقائق ؟!

ـ أن أباك كون ثروته عن طريق غير شريف ..

غلف الضيق والحرج وجه صفاء . لاحظها عبده فقال :

ـ أرجوك .. اسمعينى حتى النهاية والحكم عندئذ لك ..

ـ تفضل ..

ـ أولا لايعقل أن يكون إنسان عشرات الملايين فى مدة تقل عن عشر سنوات .. فنحن لسنا فى أمريكا .. ثانيا .. أن ثروة أبيك ومصلحته الشخصية فوق أى اعتبار آخر .. حتى أنت ..

ـ أرجوك .. لاتحاول التدخل فى العلاقة بينى وبين أبى ..

ـ سأثبت لك كلامى بسؤال بسيط : لماذا لم يبلغ أبوك الشرطة بمجرد علمه باختفائك أو اختطافك ؟!

ـ ربما لم يرد أن يشوه سمعتى ..

ـ وهل سمعتك أهم من حياتك ؟!

ـ لقد قرر الدخول فى انتخابات مجلس الشعب .. وسيستغل أعداؤه هذا الحادث ضده فى الدعاية والحملة الانتخابية ..

ـ أنت تلتمسين لأبيك أعذاراً غير مقنعة .. وأنا شخصيا أحسده لأن له ابنة عظيمة محبة له كل هذا الحب برغم كل شىء .!

ـ إنه أبى أولا وأخيراً ..

ـ لو كان يشعر بنفس شعورك لدفع المبلغ فورا وأعادك إلى البيت .

ـــ لم أعد أدرى شيئا مما يدور .. ماذنبي أنا في كل هذا وامتحان البكالوريوس على الأبواب؟!

تلألأت الدموع في عيني صفاء . دموع أعقبها بكاء لم يحتمله عبده . أطفأ سيجارة كانت في يده وقام وجلس على الكرسي المجاور لها وربت على ظهرها فلم تنفر منه بل توقفت عن البكاء ..

ـــ صدقيني ياصفاء .. لن يستمر بقاؤك هنا أكثر من يومين . لقد اتفقت اليوم مع أبيك على أن أتصل به بعد غد بحيث يكون قد دبر المبلغ .. وستعودين فوراً مصحوبة بالسلامة ..

ـــ وماذا إذا رفض دفع المبلغ؟!

ـــ تعجبني هذه الواقعية .. حتى إذا رفض دفع المبلغ فسأعيدك إليه بطريقتي الخاصة . فأنا لازلت أملك الإيصال الذي يمكن أن يفتح عليه أبواب الجحيم . لكن عديني ـــ وأنا واثق في وعدك ـــ بأنك لن تقولي شيئا عننا نحن الثلاثة أو المكان الذي كنت فيه ..

ـــ قد لاتصدقني إذا قلت لك إنني تعاطفت مع كل كلمة قلتها .. انني أعدك ألا أفتح فمي بكلمة بعد مغادرتي هذا المكان ..

ـــ وأنا واثق في كلمتك .. هل يمكن أن تعود ابتسامتك الجميلة إلى وجهك ؟!

انتشرت بوادر ابتسامة حول عيني وفم صفاء . مد عبده يده إلى الراديو كاسيت وأدار مفتاحه لتبث الموسيقى الخفيفة جوا من الراحة والاسترخاء في الحجرة . وساد صمت مفعم بالثقة .

فجأة انفتح باب البيت ودخل هاني الذي فوجىء بعبده جالسا بجوار

صفاء التي ظهرت على وجهها ملامح راحة سعيدة لم يرها من قبل منذ يوم الاختطاف. ابتسم عبده لهاني مرحباً به :

ـ أهلا هاني.. لعل أعصابك تكون قد استراحت ؟!

ـ كما استراحت أعصابك تماما ..

فوجيء عبده بالرد الغريب الذي لم يستوعبه في لحظته فسأله :

ـ ماذا تقصد ؟!

ـ لاشيء .. فأنا متعب ولا أعي ما أقول .. سأصعد لأنام ..

ـ ألا تتناول شيئا من الطعام قبل النوم ؟!

ـ ليس لدي شهية .. عن اذنكما ..

صعد هاني السلم الحلزوني في حين تبادل عبده وصفاء نظرات زاخرة بالدهشة . نظرات لاحظها هاني وهو أعلى السلم الحلزوني . دخل هاني غرفة النوم المواجهة لغرفة صفاء . أوصد الباب وارتمى فوق السرير بملابسه .

أخيرا ظهرت على حقيقتك ياعبده .. تلكمني وتزين لي الخروج للتريض لتهدأ أعصابي في حين أنك تخطط للاختلاء بهذه الساقطة التي لم تعرف الابتسامة سوى معك . من أين حصلت على كل هذه الراحة والاسترخاء ؟! لماذا تجلس بجوارك مطمئنة تستمع إلى الموسيقى الخفيفة وهي التي رفستني وضربتني كالقطة المتوحشة ؟! لماذا غيرت فستانها وارتدت الفستان الوردي الذي كنت أحتفظ به للصديقات والزائرات ؟! لماذا يبدو وجهها نضرا وكأنها قد أخذت حماما ؟! هل يملك عبده عصا سحرية تفتح له الخزائن وقلوب النساء ؟! لقد تركتك تسطو ياعبده على خزانة خالي لكنني لن أسمح لك بحال من الأحوال أن تسطو على إبنته . إنك تنوي أن تفوز

بالصفقة كلها ولكنى لك بالمرصاد . أويتك فى بيتى وأرشدتك إلى خزانة خالى وفى النهاية تلكمنى وتخدع صفاء . كيف ياصفاء يابنت الأصول تحبين لصا مختطفا ذا سوابق ؟! فى الوقت الذى ترفضين فيه ابن عمتك ؟!

تسلل النوم إلى عينى هانى فراح فى اغماءات متقطعة وكوابيس متتابعة . حلم مرة بصفاء وهى تتعرى تماما أمام عبده فى حين تلصص هو عليها من ثقب الباب : مرة أخرى وجد عبده يستل سكين المائدة ويطعنه به مرات عديدة وصفاء تبتسم متشفية لمنظر الدماء المتدفقة . مرة ثالثة سمع صوت عربات الشرطة وهى تحيط بالبيت ويتم القبض على عبده الذى خرج ذليلا مهانا ، فى حين تأسفت صفاء له وطلبت منه الزواج . مرة رابعة انهال عليه خاله بسوط من جلد وصلب فألهب به ظهره ثم جاء ثلاثة رجال غامضون ألقوا به فى قفص من حديد .

عندئذ لم يحتمل النوم أكثر من هذا . فتح عينيه ونظر فى ساعة يده فوجدها الثالثة صباحا . على ضوء الأباجورة اكتشف أنه نام بملابسه وحذائه . سمع صوت أقدام فى البيت فارتسمت فى ذهنه فى الحال صورة صفاء وعبده . نهض وخلع حذاءه وسار بالجورب على أطراف أصابعه . فتح الباب وسار فى الممر الضيق القصير فوجد عبده يغط فى نوم عميق وقد تغطى ببطانية على ثلاثة كراسى فى مواجهة باب الغرفة التى تنام فيها صفاء .

من أين أتيت براحة البال هذه ياعبده ؟! ماذا فعلت مع صفاء قبل أن تلعب دور الحارس الأمين وتنام أمام بابها ؟! ما هذه النار التى تكاد تحرقنى من الداخل ؟! لابد من وقوع أشياء تقلب الأمور رأسا على عقب .

هبط هانى السلم الحلزونى وتوجه إلى المطبخ حيث سمع حركة . وجد

أسامة وقد أخرج زجاجة مياه غازية من الثلاجة وفتحها وشربها دفعة واحدة كأن جوفه ملتهب هو الآخر . قال أسامة :

ـ آسف إذا كنت قد أزعجتك .. لقد وصلت لتوى وكنت أشعر بالعطش الشديد ..

أجاب هانى وهو يتناول زجاجة أخرى ويفتحها :

ـ استيقظت من تلقاء نفسى .. كان نومى متقطعا ..

ـ أراك نمت بملابسك ..

رد هانى بعد أن رشف رشفة كبيرة من الزجاجة المثلجة :

ـ كنت متعبا فنمت هكذا ..

ـ سأذهب لأنام على كنبة الفسحة ..

خرج أسامة إلى الكنبة المواجهة للمائدة . استلقى عليها وسرعان ما علا شخيره . انتهى هانى من الزجاجة وعاد أدراجه إلى غرفته واستلقى على السرير لكن النوم لم يعاوده . ظل يحدق فى سقف الغرفة متأملا الأشكال التى رسمها سقوط الطلاء فى بعض الأماكن . لكن صورة صفاء وعبده لم تفارق مخيلته حتى تسلل شعاع الفجر من خصاص النافذة .

شكرا ياعبده على هديتك . لم أكن لأفيق قبل هذه اللكمة . فقد أدركت أخيرا أننى كنت أراهن على الحصان الخاسر .

نظر أبو العز سلمان إلى الساعة الفاخرة المعلقة فى غرفة مكتبه فوجد أنها تمام التاسعة صباحا . ظل يذرع الغرفة جيئة وذهابا وهو ينفث دخان سيجاره بعصبية لا تتفق مع الوقار الذى اشتهر به . انفتح باب الغرفة ودخل سماحة الذى وقف خاشعا فبادره أبو العز :

ــ لماذا تأخرت ؟ !

ــ سيادتك طلبت حضورى فى التاسعة . والآن الساعة التاسعة وثلاث دقائق ..

قال سماحة هذا وهو يشير الى ساعة الجدار ..

ــ المهم .. سيتصل بى عبده اليوم لأتفق معه على كيفية التسليم والتسلم .. لقد قررت بعد تفكير طويل أن أسلمه حقيبة بها مئة ألف جنيه استرلينى و مقابل صفاء والإيصال ..

فغر سماحه فاه دهشة وقال :

ــ كيف ياسعادة البيه ؟! كيف يطلب هو بنفسه مئة ألف جنيه مصرى و تمنحه سعادتك مئة ألف استرلينى ؟!

— هل تخلى ذكاؤك عنك ياسماحة ؟! بالأمس يخدعك عبده ويفلت من يديك ولا تستطيع معرفة عنوانه .. واليوم تسألني هذا السؤال الساذج ؟!

— أذهلتني المفاجأة ! !

— سنعطيه المئة ألف استرليني لأننا نستطيع طباعة غيرها يامعلم ..

— آه .. فهمت.

— والآن فكر معي .. كيف سيتم التسليم والتسلم ؟! في أعتقادي أنه لابد أن يتم على أرض محايدة حتى يطمئن عبده ..

— هناك أماكن يمكن أن تتم فيها العملية وخاصة إذا كانت مساء ..

— مثل ؟!

— مثل الشوارع الجانبية المظلمة المتفرعة من شارع الهرم .. أو المنطقة الواقعة بين مصر الجديدة والمطار .. أو شوارع مدينة المقطم التي تختفي بين التلال .. أو ضواحي حلوان .. أو غير ذلك من الضواحي النائية ..

— لكن ماذا سنفعل إذا رفض عبده هذه الطريقة ؟!

— لدينا بدائل كثيرة .. كذلك لانستطيع استبعاد استخدام القوة ..

— كيف تستخدم القوة وأنت لم تعثر بعد على مكان عبده ؟! ثم ان استخدام القوة فيه خطر على حياة صفاء ..

— كل شيء لابد أن يحسب حسابه أولا ضمانا لسلامة صفاء هانم .

— أريدك أن تدرس كل البدائل المحتملة مع حمادة وجميل .. على أن يدور كل شيء في طي الكتمان .. وخاصة أننا اليوم سنعقد أول تجمع انتخابي أخطب فيه في أبناء دائرتي .. فهذه هي معركتنا الحقيقية ..

سمع الاثنان طرقات خفيفة على الباب ثم فتح ودخلت حنيفة مربية صفاء : صرخ فيها أبو العز :

— ألم أقل لك ممنوع الدخول طوال وجودي بالمكتب ؟!

— سيدي .. جاء الأستاذ هاني ابن أخت سيادتك .. وطلب المقابلة لأمر عاجل وخطير .. فلم أستطع منعه وأجلسته في الصالون إلى أن استئذن من سيادتك ..

تبادل كل من أبي العز وسماحة نظرات كلها دلالات ومعان . قال أبو العز لسماحة :

— أخرج أنت الآن وانتظرني في الغرفة المجاورة ..

نفذ سماحة الأمر في اللحظة نفسها ..

قال أبو العز للمربية :

— دعي هاني يدخل .

خرجت المربية لتنفيذ الأمر . وبعد لحظات سمع أبو العز طرقات خفيفة على الباب فقام بنفسه وفتحه وإذ بهاني يقف أمامه وقد ارتسم على وجهه مزيج من الخجل والحرج والطيش والانفعال الغامض . احتضنه أبو العز وأخذه إلى أحد المقاعد في مواجهة المكتب وأجلسه :

— أهلا هاني حبيبي .. أوحشتني كثيرا .. كيف حالك وحال أمك ؟

جلس أبو العز إلى مكتبه وأشعل سيجارا جديدا . ثم فتح علبة الشيكولاته الموسيقية وقدمها لهاني الذي أخذ قطعة وضعها في جيبه . ذهل هاني لهذا اللقاء الودي الحار الذي لم يكن يتوقعه أبدا . قال :

— الحمد لله يا خالي .. وأمي تهديك السلام ..

— كيف صحتها الآن ؟

— أفضل بكثير من ذي قبل ..

— هل تراها كثيرا هذه الأيام ؟

— لا أستطيع أن أستغنى عنها .. فهى الخير والبركة ..

— حفظها الله لك ولنا جميعاً ..

ركز أبوالعز نظراته على هانى فوجده يلعب بالولاعة البللورية الموجودة أمامه على المائدة الصغيرة . كان الحرج يبدو عليه وكأنه يريد الاعتراف بشىء يكتمه ، شىء دفعه إلى المجىء إلى بيت خاله . لكن خاله قرر أن يتركه حتى يعترف بنفسه وسأله :

— لم أرك منذ مدة طويلة ؟!

— مشاغل الحياة ياخالى .

— خطوة عزيزة ..

— أعز الله مقدارك ..

— خالى .. لا أخفى عليك .. جئتك فى أمر ملح .. كنت أريد أن أخبرك به منذ أيام لكن ظروفا قاهرة منعتنى ..

— خير .. إن شاء الله ..

— كنت قد استأجرت بيتا مفروشا فى الهرم فى منطقة نائية وسط الحقول وذات مساء .. وبالتحديد مساء الخميس الماضى فوجئت بصديقين قديمين هما عبده وأسامة جاءا فى عربة قاما بتأجيرها وحملا بها صفاء فاقدة الوعى . ودخلا شاهرين مسدسيهما وهددانى بالقتل إذا فتحت فمى بكلمة :

تحول أبوالعز إلى نظرات ثاقبة مخيفة . قال :

— وماذا حدث لصفاء بعد ذلك ؟

— أفاقت بعد هذا .. لكنها أمرانى بعدم الخروج من المنزل لأن صفاء أصبحت رهينتهما .. ولن يفرجا عنها إلا بعد الحصول على الفدية ..

ـ وكيف تجرأت وجئت هنا اليوم ؟!

ـ انتهزت فرصة نومها وتسللت من المنزل وركبت العربة وقدتها كالمجنون إلى هنا ..

ـ وكيف حال صفاء ؟!

ـ بخير الحمد لله .. ولو أن عبده مستمر فى خداعها ..

ـ وما عنوان بيتك بالهرم ؟!

ـ سأقدمه لك حالا .. ولكن بعد أن تعدنى بأننى ليس لى علاقة بهذه القضية وأننى أخبرتك بها من أول وقوعها ..

ـ إطمئن .. سأكتب لك عقد عمل باحدى شركاتى .. وسأقول أنك كنت ملازما لى طوال فترة الاختطاف .. هذا إذا وصل الأمر إلى الشرطة .. وهو الأمر الذى أعتقد أنه لن يحدث ..

ـ العنوان هو : ١٣ سكة أبوالغيط .. وهى متفرعة من شارع الهرم الرئيسى حيث يقع كاباريه « ست الحسن » على الناصية . وقبل طريق مصر اسكندرية الصحراوى بشارعين على يمين المتجه إلى الهرم .

نهض أبوالعز بأسلوب أشاع جو الطوارىء فى الغرفة . نهض هانى فى أعقابه . قال أبوالعز :

ـ عد ياهانى كما كنت إلى بيتك بالهرم .. وحاول أن تخترع أى عذر لخروجك .. وإياك والارتباك فى تصرفاتك حتى لاتثير الشك عندهما .. وسنقوم نحن بالباقى . واطمئن فأنت خرجت من الموضوع كالشعرة من العجين .

استأذن هانى وخرج .

فى اللحظة نفسها دخل سماحة غرفة المكتب ففاجأه أبوالعز :

— اجمع الرجال الآن وضعوا خطة عاجلة لاسترداد صفاء والإيصال .. فقد عثرت على عنوان صفاء ..

— ومتى ستكون ساعة الصفر يامعلم ؟!

— قبل خروجى لحضور الحفل الانتخابى .. تكونون أنتم فى الموقع لإنهاء العملية ..

— أية أوامر أخرى؟!

— خذوا معكم أسلحتكم .. لكن تفادوا اطلاق النار بقدر الامكان حتى تضمنوا سلامة صفاء . وعليكم بضرب عبده ضربا مبرحا بعد استسلامه ثم إلباسه تهمة أخرى غير الاختطاف . تذهب به هذه المرة إلى الأشغال الشاقة المؤبدة أو السجن المؤبد على أسوأ الفروض .. وضع فى ذهنك أن أهم شىء فى هذه العملية هو تخليص الإيصال منه .

— أية أوامر أخرى يامعلم ؟!

— وعليكم ابلاغى بالنتيجة حتى لو كنت فى خيمة الحفل الانتخابى أخطب فى أبناء دائرتى ..

— تحت أمرك يامعلم ..

— أتمنى لكم التوفيق . .

تراجع سماحة بظهره إلى الباب ثم استدار وفتحه وخرج مغلقا إياه خلفه . نظر أبو العز خارج النافذة المفتوحة فوجد قطة تجرى على سور الفيلا وقد حمات بين أنيابها فأرا يصارع الموت بين أنيابها .

— ١٥ —

عندما خرج هانى من فيلا خاله أحس بشىء داخله يقلقه . لم يكن متأكدا من أن مافعله هو التصرف السليم . كذلك تبخرت الطمأنينة من وجدانه برغم تأكيدات خاله له بأن يطمئن . ذلك أن خاله ليس فوق مستوى الشبهات ، وكلمته لاتوحى بالثقة كثيراً .

تذكر هانى أنه لم يتناول طعاما منذ ظهر أمس . دخل — دون تفكير — الكافيتريا المواجهة للفيلا وجلس عند المدخل حيث اعتاد عبده أن يعسكر . طلب بعض الساندويتشات وعصير برتقال . لكن شهيته لم تكن مفتوحة كالعادة . غمرته موجة شديدة من القلق والشك . ماذا سيكون الوضع لو انتصر عبده على خاله ؟ ! إن عبده يستطيع أن يسلم الإيصال إلى الشرطة فى أى وقت . وماذا عن صفاء ؟ ! هل يطلق سراحها أم يقضى عليها فى لحظة جنون أو لحظة دفاع عن النفس ؟ ! إن المخاطر التى تواجهك لاتقل فى بشاعتها عن تلك التى تهدد عبده وأسامة وصفاء . ولابد أن توفر لنفسك أكبر قدر

من الحماية الممكنة . وهذه الحماية لن تتوفر لك عند خالك الجبار الرهيب الذى ربما سحقك فى سحقه لعبده . كذلك يمكن أن يستخدم عبده دهاءه ويسيطر على الموقف ، عندئذ يمكنه هو الآخر أن يبطش بك منتقماً لنفسه من خيانتك . لم تكن حكمة منك أن تذهب إلى خالك وتقدم له عبده على طبق من فضة دون أى ضمان أو مقابل . الوقت يمر بسرعة لكن الاحساس به احساس ثقيل الوطأة ومحبط للتفكير . ماذا تفعل ياهانى بعد أن تطورت الأمور إلى هذا الحد الذى يؤكد تطاير نذر الشر فى الجو ؟! كيف تخرج بنفسك وتنجو من هذه الهاوية كما تخرج الشعرة من العجين على حد قول خالك ؟!

تكاثرت الأسئلة وتعثرت الإجابات وأصيب التفكير بالشتات فى صحراء تمتد ما بين الزمالك والهرم . ترك هانى الكافتيريا دون أن يكمل افطاره وذهب إلى عربته التى تركها فى نفس المكان الذى وقفت فيه ليلة سرقة الخزانة واختطاف صفاء . تلك الليلة المشئومة التى يود لو مسحت من سجل الزمن . فى حياة الإنسان لحظة يمكن أن تستمر إلى آخر لحظة فى حياته .

ركب العربة وأدار المحرك . هل يذهب الآن إلى الهرم ؟! كيف سيواجه عبده ؟! ماذا يفعل لو وجد نفسه بين شقى الرحى : أبوالعز وعبده ؟! ومضت فى ذهنه فكرة كالبرق فى ليلة مطيرة مظلمة . لماذا لايذهب إلى ضابط المباحث حافظ ويقص عليه كل التفاصيل ؟! إنه بهذا يؤمن جانبه إلى حد ما ، ويمكن أن يتحول من متهم إلى شاهد . أو تخفف عقوبته على أسوأ الفروض لارشاده الشرطة إلى العصابة .

انطلقت العربة وبعد لحظات كانت تقف أمام قسم الشرطة . سأل هانى عن العقيد حافظ فكان فى مكتبه لحسن الحظ . أمره الشرطى الواقف على باب المكتب بالانتظار قليلا . آه ياحافظ لو تعلم أننى جئت فى موضوع يخص

صفاء التي تقدمت لطلب يدها من قبل ورفضك أبوها ؟! بعد لحظات سمع صوت حافظ الجهوري وهو يأمر الشرطي :

ــ دعه يدخل .

دخل هاني وهو يستجمع شتات عقله ويجهز نفسه لسرد قصة لايعرف نهايتها . حيا حافظ الذي أشار له بالجلوس :

ــ أي خدمة ؟!

ــ جئت لسيادتك في موضوع خطير يخص صفاء ابنة المليونير أبوالعز سلمان .

ارتعشت الشفة العليا عند حافظ وأمر الشرطي المنوط بالمكتب أن يغلق الباب وألا يدع أحدا يدخل . قال :

ــ ماذا تعرف عن الآنسة صفاء ؟

ــ إنها ابنة خالي . وفي يوم الخميس الماضي فوجئت بصديقين قديمين قاما باختطافها وحملها في عربة أجرة إلى منزلي الذي استأجره بالهرم . وأمراني بعدم فتح فمي بكلمة واحدة وإلا سيكون القتل مصيري ومصيرها ثم طالبا أباها بفدية قدرها مئة ألف جنيه . وفي أول فرصة تمكنت فيها من الهرب جئت إلى هنا لأخلي مسئوليتي .

ــ هذا يعني أنها لاتزال تحت الاختطاف ؟!

ــ نعم . ولاتزال المفاوضات جارية بين الأب والمختطفين . .

ــ ولماذا لم يبلغنا الأب بمجرد وقوع الحادث ؟!

ــ لأنه ينوي خوض المعركة الانتخابية القادمة لاستعادة مقعده في مجلس الشعب ويخشى أن يؤثر الحادث على نسبة شعبيته . .

— فعلا .. فهو سيعقد اليوم حفلا انتخابيا جماهيريا ليلتقى فيه بأبناء الدائرة .

— هل أستطيع اعتبار نفسى خاليا من المسئولية ؟!

— إذا كانت أقوالك مطابقة للوقائع فانك بهذا تكون قد خدمت الأمن والعدالة ..

— شكراً يأفندم ..

سعد هانى لهذه الملاحظة وأدلى لحافظ بكل تفاصيل الحادث . لكن حافظ سأله :

— وماذا إذا لم تثبت صحة أقوالك ؟!

اجتاحت هانى قشعريرة غطت جسمه كله . لكنه تمالك نفسه وقال :

— سيادتك يمكن أن تتحرى عنها .. وأنا تحت أمرك ..

— إذن .. تفضل الآن مصحوبا بالسلامة إلى البيت . ويجب أن يكون سلوكك طبيعيا للغاية .. وسأقوم أنا من ناحيتى بعمل اللازم من تحريات وضبطيات .

شكر هانى حافظا وخرج من قسم الشرطة وقد اعتراه مزيج غريب من الراحة والقلق والندم والاحباط والاطمئنان والخوف . ركب عربته وانطلق بها فى طريقه إلى الهرم . كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهرا . تحولت المرئيات أمامه إلى أصوات وضجيج وألوان متداخلة . مرت أمام عينيه صور مهزوزة لصفاء وعبده وأبى العز وحافظ وأسامة . سمع لعنات بعض سائقى السيارات المحيطة به تنهال عليه لعدم سيره فى خط مستقيم . كانت هذه اللعنات تستفزه فيما سبق . لكنه الآن يسمعها ولا يعيها . تحت نفق الهرم

توقفت سيارة أمامه فجأة ، فاصطدم بها . هبط منها صاحبها واللعنات والاهانات تتدفق من لسانه . هبط هانى بدوره فوجد أن المصباح الأيمن لسيارته قد تهشم تماما ، أما السيارة الأخرى فلم يحدث لها سوى خدوش سطحية فى الطلاء والصاج . علت أبواق السيارات الواقفة فى الطابور خلفه . لم يفتح هانى فمه بكلمة . كان الذهول يسيطر على نظراته . تعجب صاحب السيارة الأخرى وركب سيارته وانطلق . كذلك تحرك هانى بسيارته كأنه تحت تأثير مخدر لازمه فى طريقه المهزوز الغريب وسط عالم فقد صلته به ، وأصبح لايعرف ماذا يمكن أن يحدث له فى اللحظة التالية ●

- ١٦ -

جلس عبده لأول مرة مع صفاء فى الشرفة الخلفية التى تطل على الحقول الممتدة حتى الأفق . كان المنظر منعشا للغاية . امتزجت أشعة الشمس الذهبية بخضرة الحقول فأضافت نضارة الى وجه صفاء . نضارة افتقدتها منذ يوم وصولها . لم يقطع السكون سوى صوت ساقية يدور بها ثور هزيل بجوار شجرة عجوز ذات فروع ملتوية : أما القناة الصغيرة التى تشق الحقول فقد أوشكت مياهها على التلاشى . لاحظت صفاء صمت عبده فقالت :

ـ منذ أن أتيت وأنت لم تفتح فمك بكلمة ؟ !

ـ يبدو أن أباك سيلعب بنا ..

ـ ماذا حدث ؟ !

ـ اتصلت به تليفونيا حسب الاتفاق فقال لى إنه مشغول اليوم : وطلب منى الإتصال به غدا لترتيب عملية التسليم والتسلم ..

ـ ربما كان مشغولا فعلا فى حملته الانتخابية ! !

— لم أر فى حياتى أبا لا يخاف على ابنته مثلما يفعل أبوك ! !

— عبده . . سأقول لك شيئا قد يثير ضحكك .. لكنه الحقيقة ..

— لم أضحك طيلة شهور مضت ..

— شعرت هنا منذ أمس برعاية وحنان لم أجدهما فى بيت أبى ! !

ابتسم عبده ابتسامة خففت من تجاعيد وجهه التى زحفت عليه فى هذه السن المبكرة . قال :

— أنت مخلوقة باهرة وتستحقين كل خير .. وهذا الجمال الساحر لايستحق أن يسجن هنا.. ولذلك قررت أن أعيدك الى بيتك اليوم .. فأنت لا ذنب لك فى كل ما يحدث..وأنا أكره الظلم سواء وقع على أو على الآخرين.

— وماذا عن خططك التى وضعتها ؟ !

— إكتشفت أن الايصال هو قضية أبيك الأساسية .. وطالما أننى أملكه فأنا الأقوى . . أما وجودك معنا فمصدر ضعف .. ويكفى ما حاول هانى أن أن يفعله معك بالأمس ..

— هل ستفرج عنى بلا أية شروط ؟ !

— شرطى الوحيد أن تسامحينى وأن تغفرى لى . فما حدث لك لم يكن لى ذنب فيه .. فقد جعلنا القدر فى صدام مروع دون أى سبب أو معنى .

— لم أكن أعرف أن لك قلبا كبيرا بهذا القدر ؟ !

لأول مرة امتلأت عينا عبده بالدموع فأشاح بوجهه بعيدا عن صفاء حتى لا تلحظها . قال وهو يركز نظره على الساقية النائية :

— لا أعرف أين ذهب هانى ؟ ! ولكن بمجرد وصوله .. سنقوم بتوصيلك فى عربته الى بيتك . . لقد كانت غلطة وآن الأوان لاصلاحها ..

لاحظت صفاء سحابة من الكآبة تغطى عبده . أرادت أن ترفه عنه فقالت :

— واذا رفضت مغادرة البيت ؟ !

— اذا كنت جادة فأنت بهذا تعرضين حياتنا كلنا للخطر ؟

لم ترد صفاء عندما وجدت الجدية الصارمة مرتسمة على وجهه . سمع الاثنان صوت محرك عربة قادمة من الناحية الأخرى فأضاف عبده :

— يبدو أن هانى قد وصل .. هيا استعدى يا صفاء للعودة . .

دخل عبده الغرفة وخلفه صفاء :

وصل هانى بالفعل وأحس ببعض الراحة النفسية المؤقتة عندما لم يجد ثارا لرجال خاله أو لرجال الشرطة . الحمد لله لم يصلوا بعد . كل شىء هادىء تماما . تمنى لو توقف الزمن وتحجرت الموجودات حتى لا يأتى أحد . ترك العربة وفتح الباب فوجد عبده يجلس بمفرده على الكنبة المواجهة للمائدة . سأله :

— أين صفاء ؟ !

— ستهبط فى الحال لأننى قررت اعادتها الآن الى بيتها ..

— ماذا استجد فى الأمر ؟ ! هل حصلت على المبلغ من خالى ؟ !

— لم أحصل على شىء ؟ ! ويجب أن تعود صفاء فورا لأنها ليس لها ذنب فى كل ما جرى ..

— لم يكن هذا رأيك من قبل ! !

لم يحتمل عبده الجدل أكثر من هذا :

— أتحقق معى ؟ !

— أنا شريكك ويجب أن أعرف سبب كل حركة نقوم بها ..

حاول عبده أن يتحكم فى أعصابه قدر الطاقة :

— نحن نملك الايصال .. وهو كل ما يهم خالك .. أما صفاء فليست قضيتنا أو قضيته ..

هبطت صفاء على السلم الحلزونى بعد أن صففت شعرها. وقفت بجوار عبده والتقت عيناها بعينى هانى . لم ينطق أحدهما بكلمة . تحرك عبده وقد أمسك بيد صفاء بطريقة جعلت الدم يتدفق الى مخ هانى . قال عبده :

— هيا الى العربة .

اعترض هانى طريقهما قائلا :

— وقع لى حادث تحت نفق الهرم تسبب فى كسر المصباح الأيمن وفى انهيار أعصابى ..

— بالمناسبة .. أين كنت ؟ !

— كنت أتريض قليلا لتهدئة أعصابى .. فجاءت النتيجة عكسية ؟

— اذا كنت لا تستطيع قيادة العربة .. أتولاها أنا ؟ !

— ليست معك رخصة للقيادة .

عاق عبده فى سخرية مريرة :

— فلنضف هذه الجريمة الى جرائمنا السابقة ! !

سمع عبده صوت محرك عربة تتوقف بالقرب من المنزل . ترك يد صفاء ونظر من ثقب الباب فشاهد عربة مرسيدس سوداء فاخرة وقد سدت الطريق المؤدى الى المنزل . نزل منها ثلاثة رجال أحس عبده أنهم رجال أبى العز دون أن يتبين وجوههم . تراجع عبده الى الخلف كالمصعوق سائلا هانى :

— أين كنت يا هانى ؟ إنهم رجال خالك ..

نظرت صفاء الى هانى نظرة كلها احتقار واشمئزاز ..

لم يرد هانى .. ساعده على ذلك صوت الطرقات العنيفة التى كادت أن تكسر الباب . لاحظت صفاء حيرة عبده الشديدة وهبوط أسامة كالمجنون على السلم الحلزونى ، فأسرعت الى الباب وفتحته متصدية فوجدت سماحة وخلفه وقف كل من حماده وجميل :

قالت صفاء وهى تتحكم فى أعصابها كأروع ما يكون :

— خير .. ما الذى أتى بكم ؟ !

قال سماحة وكأنه يقود معركة عسكرية :

— جئنا نخلصك من أيدى المجرمين الذين قاموا باختطافك ..

— لم يخطفنى أحد .. والدليل أننى أقف أمامك بملء حريتى .

— وماذا جاء بك الى هنا ؟ !

— جئت فى زيارة لابن عمى ..

— تعليمات البيه الوالد شىء مختلف تماما .. ولابد من تنفيذها ..

تساءل هانى بصوت مرتعش كأنه صادر من القبر :

— وما هى تعليماته ؟

قال سماحة فى تحد وقح وهو يحاول ازاحة صفاء من الباب :

— عن اذنك يا صفاء هانم ..

تراجعت صفاء مسرعة ووقفت أمام عبده : هجم أسامة المتحفز على سماحة لكن سماحة أخرج مسدسه وأطلق رصاصة استقرت فى لوحة دفل

معلقة على الجدار ، فتراجع أسامة محتميا بأحد المقاعد لكن سماحة تقدم منه شاهرا مسدسه. أبعد عبده صفاء من أمامه وصاح فى سماحة وفى حمادة وجميل اللذين سارا فى أعقاب سماحة :

— ماذا تريدون ؟ ابعدى يا صفاء .: عار على أن احتمى بك : :

تقدم عبده الى أن وقف وجها لوجه أمام سماحة وقال :

— أتعرف انك ارتكبت جريمة باقتحامك المنزل هكذا ؟ !

— أين الايصال يا لص ؟ !

— قل للذى أرسلك إننى سلمت الايصال للشرطة.. وأثبت أن لص الخزائن أشرف من لص الأرواح :.

غمز سماحة بعينه اليسرى لحمادة الذى تقدم من عبده رافعا يده اليمنى لينهال بها على رأسه لكن عبده كان أسرع منه وعاجله بلكمة فى بطنه فسقط متلويا من الألم : هجم جميل على عبده لكن أسامة مد قدمه لتصطدم بساقه ويسقط منبطحا على وجهه. وقفت صفاء فى ركن من الغرفة وقد تحولت الى تمثال من الرعب . إنها ترى رجال أبيها على حقيقتهم لأول مرة . سرعان مانهض جميل وأخرج من جيب سترته الداخلى مطواة قرن غزال شهرها فى وجه أسامة الذى أمسك بقوة بيد جميل التى تحمل المطواة وظل الصراع يتلوى بينهما . وفجأة صرخ أسامة صرخة اهتزت لها الغرفة ومن فيها : فقد طعن جميل أسامه فى كتفه وتدفق الدم منه كينبوع غزير ، ثم سقط على الأرض :

لم يتبق سوى عبده . فقد كان هانى متفرجا مذهولا مثله فى ذلك مثل صفاء . استدار جميل فى اتجاه عبده الذى حاصره حماده من الجانب الآخر ، فى حين وقف سماحة فى مواجهته . أمسك جميل بيد عبده اليسرى فى حين أمسك حمادة باليمنى ، حاول عبده التملص منهما لكنهما كانا أقوى منه ،

وضع سماحة المسدس فى جيبه الداخلى وناول وجه عبده لكمة عنيفة من يمناه ، صرخت صفاء من ركنها :

— أتركوه يا وحوش ::

لم يرد عليها أحد بل أصاب سماحة عبده بلكمة أخرى فى فمه أسالت منه الدماء دون أن يئن . كان سماحة يحلى أصابعه ببعض الخواتم النحاسية والحديدية التى اتخذت شكل الجماجم والعظام المعقوفة : سأل سماحة عبده :

— أين الايصال ؟ !

— كما قلت لك ..

أصابه بلكمة فى بطنه انحنى عبده على أثرها :

— أين الايصال ؟ !

بصق عبده فى وجه سماحة . أشار سماحة بيده اليمنى لحمادة وجميل فتركا يدى عبده . وتناوله الثلاثة فيما بينهم باللكمات والركلات وصفاء تصرخ « أتركوه يا وحوش » — « أتركوه يا مجرمين » ولكن لا حياة لمن تنادى ، فخرجت من ركنها منطلقة تجاه الباب وهى تردد صرخاتها لكن سماحة أمسك بها وألقى بها بمنتهى العنف على الكنبة فسقطت فى حالة من التشنج والإعياء لم تملك معها سوى النحيب والنشيج ، وعاودتها الرعشة التى انتابتها عندما هاجمها هانى . سقط عبده على الأرض لكن حمادة وجميل أقاماه مرة أخرى وسماحة يردد :

— أين الإيصال ؟! هل الإيصال أغلى من عمرك ؟! الضربة القادمة ستكون القاضية ..

— أقتلنى فقد سئمت الحياة :: نعم :. الإيصال أغلى من حياتى :: على الأقل سأثبت به وجودى الذى فشلت فى اثباته من قبل ::

لم يستطع عبده أن يكمل كلماته فقد تدلت رأسه من الإعياء ، والدماء التى تلطخ فمه وذقنه وقميصه ، والأورام الزرقاء التى أحاطت بعينيه .

حاول سماحة أن يستخدم اللين لكن البداية العنيفة الدموية كانت قد قضت على احتمال أى تفاهم . استدار عبده برأسه فوجد أسامة مضرجا فى دمائه وقد فقد الوعى ، أما صفاء فقد أوشكت على الإغماء . أمر سماحة كلا من حمادة وجميل بترك عبده الذى تهاوى على أحد الكراسى وارتمى بيديه ورأسه على المائدة .

ربت سماحة على رأس عبده قائلا :

— أيرضيك أن تعذب صفاء هانم بهذا الشكل الوحشى ؟!

قال عبده بوجه منكفء على المائدة حيث طبعت شفتاه وذقنه آثارا دموية عليها :

— لا علاقة لصفاء بالإيصال ..

فجأة هجم سماحة على عبده وشده بعنف من شعر رأسه ثم ترك وجهه يسقط مرة أخرى على المائدة . وكانت أول مرة يعلو فيها أنين عبده ، فانفرجت أسارير سماحة ظنا منه أن الأنين بداية الاعتراف . وكرر سماحة المحاولة لكن ..

فجأة سمع الجميع محركات عربات عديدة تقترب وتلتف حول البيت . نظر سماحة خارجا فرأى سيارات شرطة صغيرة وعربات جيب يقفز منها رجال المباحث المتخفين فى الملابس الافرنجية والبلدية . تقدم الرجال العميد حافظ شاهرا مسدسه ومقتحما الباب :

— ارفعوا أيديكم .. كلكم ..

دخل خلفه الرجال شاهرين المسدسات والبنادق. أشار لهم بالقبض على سماحة وحمادة وجميل. حاول سماحة الكلام :

ـ أريد أن أشرح كل شيء بحضرة الضابط ..

ـ في القسم متسع للجميع .. أقبضوا عليهم ..

تقدم الرجال وألقوا القبض على سماحة وحمادة وجميل واقتادوهم إلى عربات الشرطة. تقدم رجال آخرون فحملوا أسامة إلى احدى عربات الجيب وفي أعقابه ساندوا عبده الذى ركب نفس العربة التي انطلقت تحت الحراسة إلى أقرب مستشفى .

تقدم حافظ من صفاء الملقاة على الكنبة كتمثال من حجر وأمسك بيدها في حنان بالغ قائلا :

ـ هيا بنا ..

أجابت صفاء بنظرة مشتتة تائهة :

ـ إلى أين ؟!

سأصطحبك إلى بيتك . اقتادها من يدها في حين اقتاد شرطي سرى هاني من يده إلى عربة جيب دون أن ينبس ببنت شفة . فتح حافظ باب العربة الصغيرة فركبت إلى جواره . وجلس هو في مقعد القيادة ، في حين جلس في المقعد الخلفي شرطي سرى وبجواره الصحفي الشاب الذى كان قد قابل أبا العز سليمان من قبل في مكتبه لاجراء حديث صحفي عن مشروعاته وخططه .

انطلق حافظ بالعربة ولاتزال صفاء في ذهولها . لكنه أدار حواره مع الصحفي الشاب وكان اسمه كمال عبدالعظيم . قال حافظ :

— أتعلم يا كمال أن الصورة التى رسمتها لى عن أبى العز سلمان كانت حقيقية إلى حد كبير ؟!

قال كمال وهو ينظر خارج نافذة العربة :

— لا أنسى مقابلتى له أبدا .. كان مثل التمساح الذى يريد أن يبتلع كل شىء .. وفى نهاية المقابلة أراد أن يرشينى بهدية .. لكنه هاج وماج عندما رفضتها ..

بدأت صفاء تتنبه للحوار الدائر بين حافظ و كمال بعد أن داعب وجهها الأبيض وشعرها الأسود الهواء المتدفق من نافذة السيارة المفتوحة . نظرت إلى حافظ فعرفته فى الحال . إلتقت نظراتها بنظراته الواثقة الرزينة فقال :

— لم أكن أظن أبدا أننى سأقابلك مرة أخرى ، وفى ظروف عصيبة مثل هذه ؟!

— أدركت تماما أن الإنسان لايمكنه أن يعرف ما سوف يحدث له بعد لحظة واحدة فقط !!

شارك الصحفى كمال فى الحوار فقال :

— وأحيانا لايعرف الإنسان شيئا عما يفعله فى اللحظة الراهنة !!

ابتسم حافظ وعلق :

— وأحيانا لايعرف الإنسان شيئا عن حقيقة ما فعله فى الماضى !!

انطلقت العربة من نفق الهرم إلى ميدان الجيزة وحافظ لايستطيع الهروب من سؤال ظل يلح عليه منذ أن زاره هانى فى القسم . نظر إلى صفاء جواره فوجدها تتابع المرئيات باهتمام لم يكن لديها عندما ركبت العربة . كانت

الشمس على وشك الغروب فى حين عربد الهواء فوق سطح النيل الذى سارت العربة بمحاذاته . سألها حافظ :

— هل يمكن ياآنسة صفاء أن أعرف كيف تم الاختطاف ؟! ولماذا ؟ إذا كنت تعرفين الأسباب ؟!

نظرت صفاء عبر الطريق بعينين تحجرت فيهما الدموع وقالت :

— لم يكن هناك ثمة اختطاف .. لقد ذهبت بنفسى لزيارة ابن عمتى طالبة منه العودة للعمل مع أبى ..

— لكن ابن عمتك نفسه هو الذى أبلغنا باختطافك ! !

— إذا كان كلامه صحيحا .. فكيف يبلغ هو فى حين أن أبى نفسه لم يبلغ الشرطة باختطافى ؟!

— إن القضية محيرة للغاية . . لكن التحقيق سيكشف كل شىء بعد أن وضعنا أيدينا على كل الأطراف المعنية ..

سأل كمال صفاء بشغف صحفى :

— لكن بماذا تفسرين ياآنسة صفاء المعركة الدموية التى دارت داخل منزل ابن عمتك ؟!

لم ترد صفاء وانما عادت إلى وجومها وهى تتأمل شوارع الزمالك بأشجارها الكثيفة المنثورة على الجانبين . أخيرا وصلت العربة إلى الفيلا . فقال حافظ :

— أتمنى أن أسمع عنك كل خير ..

شكرته بايماءة من رأسها وشبح ابتسامة يلوح على شفتيها ، ثم خرجت من العربة ودخلت الباب الحديدى حيث انتفض البواب واقفا مرحبا « حمد الله على السلامة ياست هانم .. حمد الله على السلامة ياست هانم » . حيته فى

اقتضاب وصعدت السلم الرخامى وضغطت على الجرس ففتحت لها مربيتها التى استقبلتها بالأحضان والدموع وهى تمسح شعرها وظهرها بيدها اليسرى فى حين احتضنتها بذراعها اليمنى وهى تقول :

— ألف حمد وألف شكر لله على سلامتك ياست صفاء .. لقد خرج
بابا لحضور الحفل الانتخابى وكان قلقا عليك للغاية . ٤

ابتسمت صفاء ابتسامة باهتة وهى تقول :

— الله يسلمك يادادة .. أريد أن أدخل غرفتى لأستريح أولا .. ٦

— طبعا ياحبيبتى ..

سارت المربية محتضنة صفاء إلى أن دخلت بها غرفتها . فذهبت إلى السرير واسترخت عليه . فى حين بدا على المربية أنها تذكرت شيئا فجرت إلى التليفزيون وفتحته وهى تقول :

— سترين أباك الآن فى التليفزيون .. وسأذهب الآن لأجهز لك الحمام ..

خرجت المربية . فى حين تابعت صفاء التليفزيون بجفون متورمة مثقلة فرأت أباها وهو يخطب فى الجمهور الغفير الذى احتشد فى خيمة الإجتماع الانتخابى الكبير قائلا :

— إن نجاحى فى مشروعاتى وخططى يعود إليكم أنتم .. فقد تعلمت منكم
الكفاح والاخلاص والصدق والحب والرحمة والتعاون والحنان والتضحية من
أجل الآخرين . كانت هذه كلها أسلحتى فى بناء مستقبلى وستكون تحت ٢
أمركم لبناء مستقبلكم .

نهضت صفاء متثاقلة من سريرها وذهبت إلى التليفزيون وأغلقته فى حين ١
انحدرت دمعة كبيرة على خدها الأيسر . استدعت فى أثرها الأسطى حسن سائقها الخاص .

وقف أبو العز سلمان على المنصة يخطب ويحاور الجماهير المحتشدة لكن القلق كان ينهشه من الداخل . كان ينظر إلى ساعته من حين لآخر ويتفحص وجوه من حوله على المنصة فلا يجد سماحة أو حمادة أو جميل . إن العملية لم تكن لتستغرق أكثر من ساعة ونصف ، والآن مرت أربع ساعات ولم يعد أى منهم لكنه تماسك واستمر فى خطابه :

ـ أبناء دائرتى الأعزاء . إن أعظم لقب أعتز به وسأعتز به طول حياتى هو « إبن الدائرة » . لقد بدأت حياتى من بين صفوفكم . فأنا منكم وبكم ولكم وليست هناك سعادة تعادل سعادتى عندما يأتينى أحد أبناء دائرتى يطلب منى مساعدة أو خدمة . إن بيتى مفتوح للجميع وكذلك مكاتبى وشركاتى ومشروعاتى . فكلها منكم وبفضلكم .

هنا صفق مساعدو أبى العز تصفيقا حادا . فصفق معهم معظم الحاضرين . ثم انفعل أحد المساعدين فوقف فوق مقعده رافعا عقيرته بالهتاف : « عاش

أبوالعز ابن الدائرة » . ردد المساعدون وفى أعقابهم الحاضرون الهتاف مع رفع الأيدى واللافتات . وعادوا ليكرروا « عاش أبوالعز نصير الكادحين » . « أبو العز عن العمال والفلاحين » . كان رجال أبى العز فى كل مكان .

هدأت الهتافات . نظر أبوالعز إلى ساعته الذهبية . مسح الذين حوله بعينيه . نظر إلى الجمهور وأمسك الميكروفون بعصبية وقال :

— والآن أتشرف بأن أسمع طلباتكم حتى أضعها موضع التنفيذ فور دخولى مجلس الشعب .

صاح رجل فى أواسط العمر :

— نريد مدرسة حضانة ومدرسة ابتدائية لأننا لانجد مدارس لأبنائنا ..

— غال والطلب رخيص !

أشار أبوالعز لأحد رجاله الذين يجلسون خلفه على المنصة وكان يحمل قلما وبعض الأوراق . قال له :

— سجل هذا الطلب العزيز على قلبى .. واعمل المقايسات لتكون جاهزة فور دخولى مجلس الشعب .

إنهمك المساعد فى الكتابة ، فى حين صاح أبوالعز مرة أخرى فى الميكروفون :

— أية طلبات أخرى ؟!

صاحت فتاة يبدو أنها جامعية ذكرت أبا العز بصفاء فأحس بغصة فى قلبه :

— نريد تحويل المنطقة المهجورة على شاطىء النيل إلى حديقة لتكون متنفسا صحيا لأبناء الدائرة ..

تظاهر أبو العز بالابتسام وقال :

— عمرك أطول من عمرى :: كنت أنوى تنفيذ هذا المشروع من تلقاء نفسى :

صاح رجل يرتدى الملابس البلدية :

— نريد اعادة رصف شارع السوق بعد أن تركوه ترابا بعد مد مواسير المجارى به :

رد أبو العز :

— هذه كلها طلبات على العين والرأس طالما أنكم ستنتخبونى ..

نظر أبو العز إلى مساعده الذى انهمك فى تسجيل الطلبات وأكد قوله :

— سجل .. سجل .. سجل طلبات الأحباء ..

فجأة برز الصحفى كمال عبدالعظيم واقفا بمحاذاة الصفوف الأولى ، صاح بأعلى صوته حتى يصل إلى معظم الحاضرين :

— هناك طلب آخر ؟

قال أبو العز وقد بدأت ثقته بنفسه تهتز ، فلم يسترح لوجه كمال وان لم يتذكره تماما :

— تفضل يابنى ..

— ما آخر تطورات حادث اختطاف العصابة لإبنتك الآنسة صفاء ؟

آه .. من أى بؤرة جهنمية خرجت إلى يامبعوث الأبالسة .

سرت همهمة بين صفوف الحاضرين . أوشكت المنصة على الدوران بأبى العز . تذكر هذا الوجه المرعب . إنه الصحفى الذى جاءه فى مكتبه من

قبل لإجراء حديث ورفض الهدية . تمالك أبو العز نفسه وقبض على الميكروفون وصاح مخاطبا الجمهور ومشيرا بيده الأخرى إلى كمال :

— أرأيتم كيف يحارب الحاقدون الناجحين ؟! هذا الشاب لسوء حظه أعرفه جيدا . لقد جاءنى ذات مرة إلى مكتبى لاجراء حديث صحفى عن مشروعاتى الوطنية والقومية . فهو يعمل صحفيا . وفى نهاية الحديث طلب منى مبلغا من المال كى يمدحنى فى حديثه الصحفى . لكننى رفضت لأن أعمالى تتحدث عنى .

عندئذ صرخ كمال وصاح هائجا مائجا :

— كاذب . كاذب .. قص عليهم قصة ابنتك المخطوفة أولا ..

زادت الهمهمة بين الجمهور وتطلعت الأنظار إلى كمال الذى تجمع حوله فى لحظات رجال أبى العز متحفزين للفتك به . لكن أبا العز أشار اليهم بحركة من يده أن ينفضوا . فانفضوا بالفعل . علت أصوات متناثرة بين صفوف الحاضرين « نريد أن نعرف الحكاية » — « لماذا اختطفوا ابنتك ؟! » — « لماذا لم تبلغ الشرطة ؟ » .

كان الماء أقوى من أن يتصدى له أبو العز . لكنه كعادته لم يرضخ وصاح فى الميكروفون :

— لقد عرفت عنكم الوعى الوطنى العميق .. هل تصدقون أية اشاعة ينشرها حاقد كاذب ؟!

صاح كمال فى اصرار عجيب :

— لقد كنت اليوم مندوبا لصحيفتى فى الهجوم على وكر العصابة فى الهرم . وتم تحرير ابنتكم صفاء وعادت بالفعل إلى منزلها . ومن يشك فى كلامى يستطيع أن يتصل بالعقيد حافظ ضابط المباحث بالقسم ..

رجحت كفة كمال لكن أبا العز أحس بالراحة المؤقتة تسرى داخله لعودة صفاء سالمة إلى بيتها . لكن ما هى أخبار عبده ؟! هل نجح سماحة وحمادة وجميل فى الحصول على الإيصال ؟! وإذا كانوا قد حصلوا عليه فأين هم ؟!

أفاق أبو العز من خواطره على صوت الجمهور المتزايد المطالب بمعرفة قصة الاختطاف . عندئذ لم يجد أبو العز بداً من تغيير المسار حتى لا يسبح ضد التيار . فصاح فى الجمهور :

— سكوت من فضلكم .. سأقص عليكم كل شىء . على الرغم من أننى أكره أن أضيع وقتكم الثمين فى مشاكلى الشخصية التى لا تهمكم فى كثير أو قليل . تعرفون جيدا أننى رجل عصامى بمعنى الكلمة . بدأت حياتى من الصفر أومن باللجوء إلى السلطة إذا عجزت عن أداء مهمة قومية معينة . أما إذا كنت قادرا على الوفاء بمسئولياتى وحل مشاكلى بنفسى فلماذا لا أقوم بالمهمة بنفسى وأوفر على السلطة وقتها وجهدها كى تتفرغ لمسئولياتها التاريخية الثقيلة وقضاياها القومية الخطيرة ؟! من هذا المنطلق قررت أن أعالج موضوع اختطاف ابنتى بنفسى . وخاصة أننى أومن ايمانا جازما بأن المعاملة بالحسنى خير ألف مرة من المعاملة بالعنف . ولذلك لم أبلغ الشرطة فى أول الأمر لأننى أردت اصلاح المختطفين الطائشين الذين أعتبرهم أولادى وأبنائى برغم كل ما فعلوه . وكان هدفى من الكتمان اعادتهم إلى الطريق السوى بالحسنى لعلى أكسب أبناء صالحين لمجتمعنا النامى الناهض . وصممت على سلوك هذا الطريق الإنسانى لكن رجال المباحث عرفوا بالأمر وتدخلوا مشكورين فى النهاية .

وقف أحد رجال أبى العز متشنجا هاتفا بأعلى صوته فوق مقعده :

— عاش أبو العز العصامى الكبير !

ردد رجال أبي العز الهتاف خلفه . لكن جمهور الحاضرين لم يشاركهم الهتاف هذه المرة بنفس الحماس والإجماع .

أعاد الرجل الهتاف لكن الحماس كان أقل . عندئذ أشار الرجل إلى الفرقة الموسيقية النحاسية أن تعزف . فعزفت بعض المارشات المعروفة لكن بأسلوب زاخر بالنشاز أصاب الجالسين على المنصة بالصداع . فقد كانت الفرقة على يمين الجالسين . أشار أبو العز للفرقة بالسكوت فتوقفت ، وأمسك بالميكروفون كما لو كان فتوة ممسكا بعصا يكاد يلوح بها فى الأفق . صرخ قائلا :

– أبناء دائرتى الأحباء .. إننى المرشح الوحيد الذى يفخر بأنه رشح نفسه بلا برنامج انتخابى . فأنا لا أقدم شعارات عامة بل خدمات خاصة . خدمات خاصة لكل ابن من أبناء الدائرة التى أعتبرها أسرتى الكبيرة . ولا أطلب منكم مقابل هذه الخدمات سوى أصواتكم . أما غيرى من المرشحين فلا يملكون سوى الكلمات والشعارات الجوفاء مقابل أصواتكم .

فى تلك اللحظة وصلت عربة مرسيدس سوداء وتوقفت أمام باب خيمة الإجتماع المؤدى إلى المنصة . لمحها أبو العز فعرف أنها عربة صفاء . هل أتت صفاء إلى الإجتماع ؟! ولماذا ؟! هبط الأسطى حسن السائق ببذلته السوداء ووجهه النوبى الأسمر من العربة ولم يهبط بعده أحد . دخل من الباب وشق طريقه بين الواقفين الذين توجهت أنظارهم إليه عندما وجدوا أبا العز وقد توقف عن الخطابة وأدار وجهه شطر هذا الرجل الأسمر القادم . صعد الأسطى حسن الدرجات القليلة المؤدية إلى المنصة وسار أمام الصف الأول للجالسين . وأخرج من جيبه وهو فى طريقه إلى أبى العز مظروفاً صغيراً . وصل إلى أبى العز وأسر فى أذنه :

— ألف مبروك باسعادة البيه : صفاء هانم رجعت بالسلامة وأرسلت إلى سعادتك هذه الرسالة .

نبض قلب أبى العز نبضات غريبة غير منتظمة : رسالة غريبة فى وقت غريب . ما الذى حدث لنظام الكون اليوم ؟! نظر أبو العز للصحفى الشاب كمال عبدالعظيم الذى كان لايزال واقفا قرب المنصة فلم يجد سوى التشفى وقد تجسد فى ملامح وجهه . عاد الأسطى حسن أدراجه فى حين فتح أبو العز المظروف بيد مرتعشة . كل هذا والجمهور يشاهد هذه التمثيلية الصامتة بشغف يضاهى شغف جمهور الأفلام البوليسية . قرأ أبو العز الرسالة :

« قبض رجال المباحث على سماحة وحمادة وجميل بعد أن أوشكوا على قتل عبده . نجح عبده فى الاحتفاظ بالإيصال حتى القبض عليه ، إنك يا أبى لاتستطيع الاستمرار فيما تفعله أكثر من هذا .

صفاء : »

أعاد أبو العز قراءة الرسالة ليتأكد أنه يعيش الحقيقة التى هى أفظع من أى كابوس . وضع الرسالة فى جيبه بيد أكثر ارتعاشا ، وقد صمت الجمهور كأن الخيمة خلت من البشر . أمسك أبو العز بالميكروفون بعد أن زاد صمت الجمهور من الرعب الذى يمسك بخناقه . تلاشت حدود الأشكال فى عينيه : تحولت رؤوس الحاضرين إلى بقع سوداء متراصة ، ووجوههم إلى دوائر خالية من كل علامات . تغير ضوء المصابيح الكبيرة المعلقة فى سقف الخيمة من اللون الأبيض الساطع إلى اللون الأصفر المبهر باشعاعات أفقية ورأسية غريبة : أصبحت المنصة تحت قدمى أبى العز سفينة تتأرجح وسط ضربات الأمواج الصاخبة التى تناثر ماؤها فمسح أبو العز جبهته بيده : هبط الجليد من قمم الجبال ليحيط بكفى أبو العز وقدميه فسرت داخله قشعريرة كمس الكهرباء ؛

سرت همهمة بين صفوف الحاضرين : ماذا حدث ؟! لماذا لايتكلم ؟ ما هذه الرسالة ؟ هل سنظل جالسين هكذا ؟! لماذا ظهر عليه الإجهاد فجأة ؟ هل هومريض ؟!

احتار رجال أبى العز : ماذا يفعلون والموقف يكاد يفلت من أيديهم ؟ أشار أحدهم إلى قائد الفرقة الموسيقية النحاسية بالعزف فعادت فرقته إلى عزف المارشات بأسلوب النشاز المتسبب فى الصداع . أحس أبو العز كأنها مارشات جنائزية تودعه إلى مقره الأخير . أصبح التنفس المريح الهادىء رفاهية لايقدر عليها . تواكبت ارتعاشة القلب مع رعشة القدمين . علت الأمواج فسح أبو العز قطرات الماء المتصببة على وجهه ثم غاص بين الأمواج التى ملأ هديرها أذنيه . فى حين علت دقات طبول الفرقة النحاسية وأبواقها النشاز مع موجات المد والجزر بين الحاضرين .

« انتهت »

رقم الايداع ١٨٨٥/٨٣
الترقيم الدولى ٩-٠٣٠-١٧٢-٩٧٧

دار غـريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص·ب ٥٨ (الدواوين) ـ تليفون : ٢٢٠٧٩